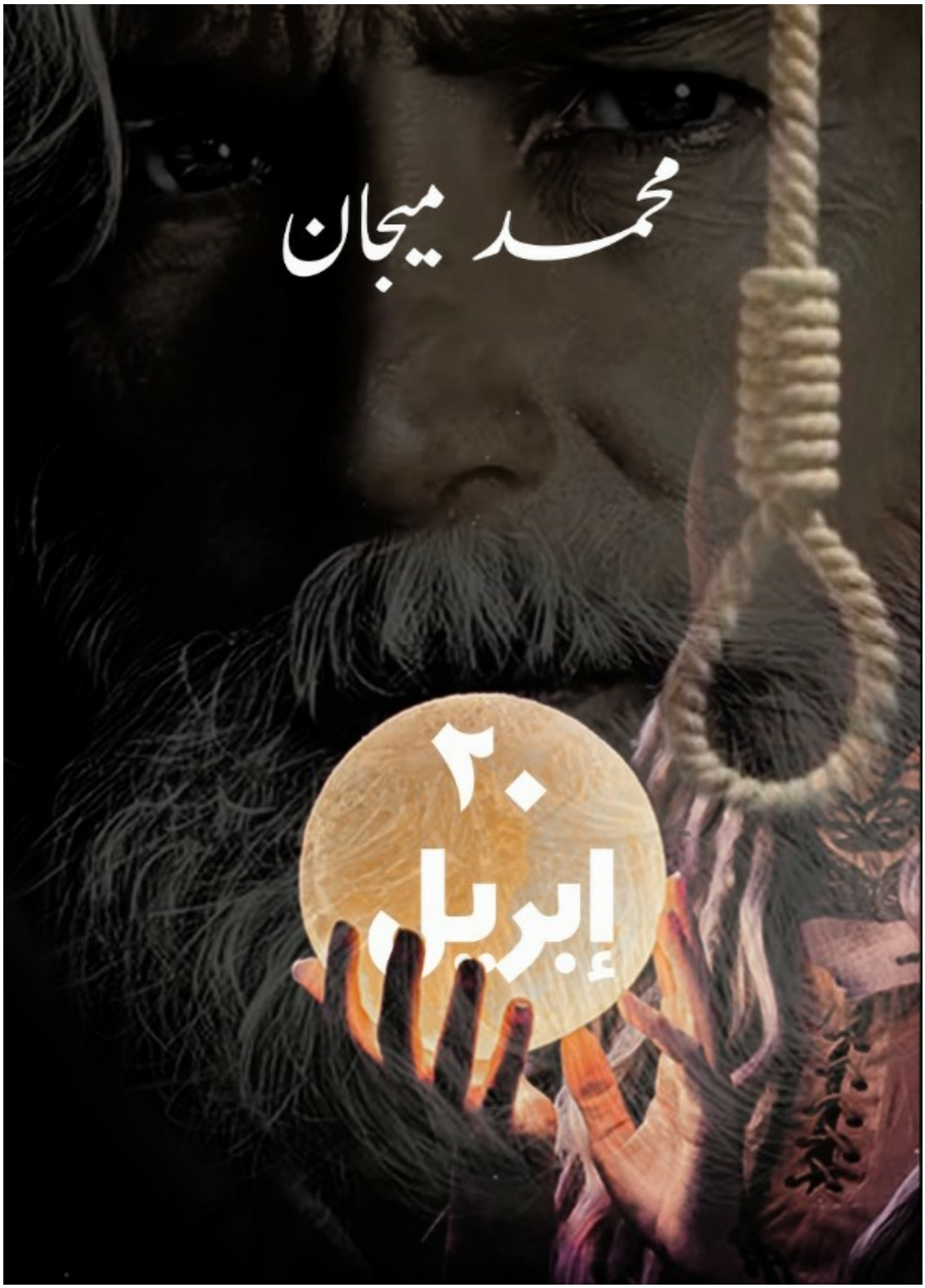
محمد ميجان
٢٠
إبريل

رقم الإيداع:2022/3428

الترقيم الدولي

7-54-6942-977-978

الطبعة الأولى

- 20 أبريل

رواية

محمد عبد العزيز ميلان

الفصل الأول

جبان..

شتاء ٢٠٠٣

في ليلةٍ شتويةٍ غاب عنها القمر، كانت السماء تحمل أطنانًا من سر الحياة، توزعها على الغيوم وتنتظر اللحظة المناسبة لإغراق شوارع الإسكندرية برسائل الشتاء.

داخل غرفتي المظلمة أشاهد نجومًا تعلن التحدي وتقوم بدورها في إرسال ضوئها الخافت، وتعلن أنها لن تستسلم لليلٍ شتوي قاتم. أستمع إلى هزيم الرعود تعلن بغضب وصول قاطرات المطر، ويقوم البرق بإعلان مصوَّر لعرضٍ شتوي منتظر، وأنا في الصف الأول أترقب العرض، وها هي قطرات الماء تدق على زجاج نافذتي بقوة تذكرني بموعدي، أتدثر بمعطفي وأخرج في هدوء، أتحاشى نظرات أبي الجالس أمام التلفاز يشاهد أخبار السياسة التي لم أسمعه يتناقش فيها مع أحد، كانت هوايته الوحيدة متابعة نشرة الأخبار وكأنها من الطقوس الدينية التي يؤنبه ضميره كثيرًا لو لم يقم بها. أراقب نظرات أمي وانشغالها في المطبخ الذي لا تنتهي منه، كأنه الملاذ الآمن الذي تنعم فيه بحريتها ولا تمل منه ولا يملَّها. تقدمت بخطواتي لأقطع المسافة بين غرفتي وباب البيت متعمدًا الإسراع كأن أحدًا يلاحقني.

وأخيرًا خرجت، لا أعرف ما سر شعوري بالحرية عند خروجي من منزلي دافئًا يدي في جيب معطفي، استقبلني المطر يضرب رأسي بقطراته كأنه يعاقبني على عشقي له، يرجمني بلا هوادة كأنه قرأ ما بداخلي من انتقادي لأبي واستغلال طيبة أمي، ولكني لا أبالي بعقابه. خرجت إلى الشارع الرئيسي في الحي بإضاءته

الخافتة. بعـد دقـائق سـاد السـكون بعـد أن تعـودت أُذني صوت ارتطام المطر بالأرض.

وصلت الآن؛ نعم هذه هي الشجرة التي تـدور حولهـا قصـص وحكايـات تناقلتهـا ألسـنة الأجـداد، كم اسـتمتعتُ بالاستماع إليها! يظهر جـذر الشـجرة العملاق كبابٍ عـتيق يحمل خلفه أسرارًا كثيرة، تقدمت بخطواتي ينتـابني بعض الخوف مما قد أجده هناك.

_ إلي أين أنت ذاهبًا يا عمر؟

انتفضــت خوفًــا عنــدما وصــلني النــداء، وانهــارت شجاعتي أمـام أول اختبـار، والتفتُ في خشـوع لمواجهـة مصيري لأجده بعينيه السوداوين الضيقتين اللـتين تخفيـان بئرًا عميقـة من الأسـرار مرتديًا عبـاءة بلـون عينيـه الـتي تفوقني في العمر، ويحمـل كـل ثقب فيهـا حكايـة طويلـة ومأساة عاشها هذا الرجل.

قلت متوسلًا:

_ عم سلامة.

استجوبني قائلًا:

_ألن تتوقـف عن الـنزول من الـبيت في هـذا الطقس يـا بُني؟

_ لا أرى ذنبًا في السير تحت المطر يا عم سلامة.

وأنت ماذا تفعل في هذا الطقس؟

سألته.

_ وكأنك لا تعلم ماذا أفعل هنا؟! وهـل لي عملا أخـر غـير حراســة هــذه الأرض المهجــورة، وأنت تعلم جيــدا أني لا أخشى الليل أو أهاب الجن مثلك.

أتبع كلامه بضحكة سـاخرة معقبًـا على ارتعـادي منـه حين ناداني.

_ أنا لست خائفا يا عم سلامة.

ضحك مقهمقًا قائلًا:

_ وما العيب في أن تخاف، الخوف يشعرك بلذة الأمان.

_ لا تسخر مني.
_ أنا أمزح معك،لا تكن سريع الغضب مثل والدك رضوان.
تغير وجهي حين ذكر والدي..
سـحبني من يـدي برفـق إلى موضـع تحت الشـجرة نحتمي فيـه من المطـر، وقفنـا بجـانب الجـذر مباشـرة، مددت يدى أتلمس جلدها ففاحت منها رائحة بخور نفـاذة، فأصابتني قشعريرة شديدة فابتعـدت وحـاولت تغيـير دفـة الحديث بعيدًا عن والدي، فسألته:
_ كم يبلغ عمر هذه الشجرة؟
_ عليك أن تسئلها بنفسك.
ابتسمت بسخرية:
_ وهل يتكلم الشجر يا عم سلامة ؟
تمتم هامسًا:
_ تستطيع بقدراتك أن تجعل الحجر يتكلم.
_ كيف؟
أخذ يعبث بأصابعه في لحيته ثم غير مجرى الحديث قائلا:
_ أخبرني، كيف تسير أمور حياتك الآن؟
هذا السؤال يثير ضجري فخاطبته بعدم اكتراث:
_ حياة عادية لا جديد.
_ لا تُعجبك حياتك وهذا سبب حزنك الدائم..
كان يقذف نبُّوته من يدٍ إلى الأخرى.
غمزته ممازحًا:
_ بالعكس، تعجبني جدا مثلما تعجبك حياتك تمامًا.
_ غدًا ستتمني لو تبقى حياتك كما هى.
أحب الحديث معه، لكن أتوجس منه عندما يحـادثني بلغـة الألغـاز. شـعرت بـالبرد يضـرب جسـدي فـانتهزت فرصـة توقف المطر لأنصرف.
_ سأذهب أنا الآن وأتركك تسـتمع بوحشـة الليـل وتـأنس بعفاريته؟
وأدرت ظهري ملوحًا بيدي.

_ أعتنى بنفسك يا بُنى ولا تنسِ أن تبلغ تحيتي إلي والدك. مستندًا على نبُّوته ودَّعني، وأدار ظهره يهمهم ببعض طلاسمه.

عدت أدراجي إلى البيت أشعر بعار الخوف يلاحقني، وأنني مازلت جبانًا رغم تظاهري بالشجاعة كثيرًا أمام المرآة .. ولجتُ إلى البيت لأجد أبي على حاله أمام التلفاز وأمي بجواره تنظر إلي التلفاز.

_أين كنت يا بني ؟

_أشترى شيئًا من المتجر يا أمي.

_ألن تتناول عشاءك؟

_لا يا أمي لست جائعًا.

ودخلت غرفتي..

أشعر بالاختناق؛ ليس بسبب كذبتي البيضاء التي جاوبت بها أمي الآن، فأنا دائما كذبي أبيض ولا أعلم ما سر اقتناعي بأن الله لن يحاسبني عليه، ولكن شعوري بالأختناف كان من عجزي الدائم وقلة حيلتي.

حاولت أن أراجع بعض المواد الدراسية،اقترب الامتحان نعم سأنهي دراستي وأحصل علي الشهادة الجامعية التي يحلم بها أبي ليعلقها علي حائط المنزل ويعلق معها أحلامي على حائط الأمل، كنت دومًا متفوقًا في دراستي في مراحل تعليمي المختلفة؛ لم يقل مستوى تقدير درجاتي إلا في مرحلة الجامعة لقلة ذهابي إليها. في بداية التحاقي بها حاولت أن أنتظم في دراستي، ولكن خجلي الشديد منعني من النجاح في إقامة أي صداقة أو بمعنى أدق كنت أهرب من أي صداقة، وصرت بكامل إرادتي منطويًا، اخترت في النهاية عدم الذهاب إلا عند الضرورة وأيام الاختبارات مستعينًا بزميلي كمال الذي بطريقة ودية تفهم وضعي وقرر أن يكون معيني في الجامعة، ربما أشفق على حالي وقرر مساعدتي لوجه الله فتواكلت عليه..

أعلم أن مرحلة جميلة تضيع من عمري وتنساب أيامها من بين أصابع يدي، ولكني استسلمت في النهاية لقلة حيلتي وجُبني، واخترت الهروب وعدم مواجهة بعض العوائق، نعم الهروب كان خياري الأول والأخير بعد تفكير طويل دون جدوى في حل مشكلاتي، أشعلت سيجارة، رغم فشلي في الإمساك بها بطريقة محترفي التدخين، مازال التدخين لا يليق بشخصي؛ ومن هنا بدأت إيذاء نفسي.أعلم أن أبي سيشم رائحة التبغ من وراء جدران الغرفة، ولكن لا قلق؛ فقد علم أني أصبحت مدخنًا منذ سنتين ولم يفاتحني في الموضوع من قريب أو من بعيد، واكتفى بالسكوت وتركني لما يحلو لي، ربما الفجوة التي بيني وبينه تسمح لي بتجاوز الحدود دون رد رادع منه رغم قسوة طبعه التي يحاول بها إخفاء طيبة قلبه كأنها درع يحميه من تقلبات الناس، أو ربما لأنه يدخن بشراهة، سيختفي دخاني منسجمًا مع دخانه، كم تمنيت أن أنسجم مع أبي مثلهما!

لم أذاكر ولم أفعل شيئًا سوى التفكير الذي بدأ يستنزف جسدي النحيل، وملأت كتبي برسم هذه النجمة التي لا أبرع في رسم غيرها، لا أجدني أمسك قلمًا إلا وأخذت يدي ترسمها كأنها اسمي، لم أعر الموضوع أي اهتمام، ولكني لم أعلم أن حياتي ستتغير بسببها.

قررت الذهاب للجامعة غدًا؛ بعد أن هاتفني زميلي كمال وأخبرني بضرورة حضوري لمتابعة جدول اختبارات نصف العام، وقررت أيضا الذهاب لعم سلامة في الأيام القادمة. شعرت بأن شيئًا يجذبني نحوه لمعرفة أسراره والاستمتاع بحل ألغاز حديثه المبهم، في النهاية غلبني النوم..

الفصل الثاني

أسرة محافظة..

إن حياتي العادية التي لا تعجبني كنت أعيش أيامها منطويًا داخل أفراد أسرتي الصغيرة، وكما يطلقون عليها أسرة محافظة، ولكن ليست معقدة كما يتخيل البعض، كل ما في الأمر هو حفاظها على العادات والتقاليد الاجتماعية والمعتقدات الدينية، كانت أسرة عادية في كل شيء.

أبي الأستاذ رضوان رسخ فينا كثيرًا من القيم الفاضلة، لكن بالطبع ليس شرطًا أن نلتزم بها طوال حياتنا؛ فلا أحد يسلم من أفة الخروج على النص، ولكنه لم يقتنع بذلك، هو إنسان بسيط جدًّا في ملابسه، في وظيفته، في حياته كلها حتى ملامحه كانت بسيطة، كانت معظم مشكلاته تتلخص في بساطته، ربما لو تكلف قليلًا في حياته لتجنب الكثير من المتاعب، كان يواجه الحياة بقامته المتوسطة وجسده الذي بدأ يميل إلى الامتلاء قليلًا مع تقدم السن، ولم يعد نحيفًا كما كان في شبابه. عيناه البنيتان الواسعتان هما أجمل ما في وجهه، شعره أسود بدأ يغزوه بياض الثلج، كان يصففه بعناية وحليق اللحية دائما ويميزه شاربه الثقيل، أبي غزير وكثيف الشعر في معظم جسده، أنا لست مثله، فشاربي خفيف جدًّا ولحيتي ملساء مع أني اقتربت من عامي الثاني والعشرين في حين أن أبي أتمَّ عامه الثاني والخمسين من عدة أيام، لم يكن فرق السن كبيرًا جدًّا ليمنعنا من أن نكون أصدقاء ولكن هذا لم يحدث، لا أذكر أن لأبي أصدقاء سوى عم سلامة، وذلك كان في الماضي وأظنه كان يتعمد أن يكون بلا أصدقاء. كنت ألاحظ دائمًا في حديثه رغم تلقائيته أنه يحاول جاهدًا أن يخفي شيئًا ما، كان ذكيًّا جدًّا في إبعاد الناس عن كل ما يؤرقه..

والآن يقضي والدي وقتًا طويلًا في الحجرة الـتي في الدور الأرضـي من الـبيت الـذي نسـكن فيـه، كـانت هـذه الحجرة ملكًا لجدي في الماضـي ورثهـا عنـه مثـل الخـاتم الفضي المميز الذي يزين بنصره الأيسر ويعـتز بـه كثـيرًا، لم يسمح لأحد بأن يدخل هذه الغرفة وعندما كـان يـدخلها يغلـق عليـه البـاب ويقضـي سـاعات بمفـرده هنـاك، في طفولتي عندما كنت أسأل أمي ماذا يفعل أبي في حجـرة جـدى؟ كـانت تشـرد قليلًا ويعبس وجههـا وأحيانـا تسـقط دموعها وهي لا تشعر، وعندما أكرر السؤال تحاول تـدارك أمرها فتجاوبني مبتسمة (يقوم بتحضـير طاقيـة الإخفـاء)، فأضحك وتضـحك ونـدخل في موجـة من المـزاح تجعلـني أنسى أن أسألها عن سبب دموعها، فتخـرج شـيماء أخـتي غاضبة منَّا قائلة (لا تسخرا من أبي) ثم تدخل غرفتها وهي تبكي، فتضحك أمي، وعندما يأتي والدى تخبره بمـا حـدث فيضم شـيماء إلى صـدره ويخاطبهـا (هـذه محبوبـة أبيهـا) فتخرج شيماء لسانها تغيظني ثم تسـتمتع بهديـة انحيازهـا لأبي مغلفة بأمان حضنه الذي تحتله الآن، أما أنا فيرمقني بنظرة مهددة ويقول (وهذا مدلل والدته) فأشـعر بالإهانـة فتضمني أمي إلى صدرها وتـرد (نعم مـدللها وحبيبهـا، مـا دخلـك أنت؟) فـترد لي كرامـتي، ثم أسـأل نفسـي قبـل نومي ماذا لـو امتلكت طاقيـة الإخفـاء؟ وأدخـل في أحلام اليقظة لأجـد نفسـي أزور كـل بلاد العـالم أو أسـرق بنكًـا فأتذكر أن السرقة حرام فـأتراجع عن هـذا الحلم، وأذهب لتحرير القدس وكثير من الأحلام الضائعة أو ربما المؤجلـة إلى حين.

دائمًا ما كان هناك حـاجز بيـني وبين أبي لا أسـتطيع عبوره، أغلب حديثنا يتلخص في أوامر ونواهٍ وأمـور ماديـة بحتة، اتسعت الفجوة بيننا مع مرور الأيام، تمنيت كثيرا أن يحتويـني ويتفهمـني وخصوصًـا أيـام مراهقـتي، كنت في احتياج إليه في هذه الفترة، بل كنت في احتيـاج إليـه جـدًّا

في كـل سـنين حيـاتي، هـو لا يُقصـر في أي من واجباتـه كرب أسرة ودائما ما كـان يعطيـني أكـثر ممـا أطلب لكن غاب عنه الدفء الأبوي وهذا أشعرني بالنقص رغمًا عـني، أحيانًا كنت أتسـاءل في مخيلـتي مـاذا لـو أن أبي هـو من يراني أبتعد عنه ويشتكي من جفائي لـه وتقصـيري معـه؟ أحيانا يجب أن ترى نفسك بعيون الآخرين كي تكون عـادلًا في حكمك.

كـانت أمي تحبـه جـدًّا رغم غموضـه وقلـة اهتمامـه، كان يُحسب له أنه يتركها تصب عليـه غضـبها دون أي ردة فعل منه تؤذيها، ربما لم تستطع الابتعاد عنه بسـبب ذلـك، دائما ما يحتاج الإنسان لشخص يسمح له بأن يصـب عليـه غضبه دون مقاومة..

أما أمي النصف الآخر في أسـاس أسـرتنا وعمودهـا الفقـري، فهي تسـتحوذ على الأهميـة الأكـبر في المـنزل والجمال الأكـبر أيضـا؛ فكـل الأمهـات جميلات، كثـيرًا مـا كانت تدللني وتغدق عليّ من عطفها وحنانها وتحميني من عصبية أبي وحدة ردود أفعاله، دائما ما تعاملني برفق زائد عن معاملـة أم لابنهـا، كنت أشـعر أنهـا تقـدم لي كـل مـا تسـتطيع فعلـه من أجلي كاعتـذار عن ذنب اقترفتـه في حقي!

أمي قليلـة الكلام في معظم الأحـوال ومنشـغلة في أمورنا في معظم الأحوال، وبالطبع كنت أراهـا جميلـة في معظم الأحوال، لا أذكر يومًا أنها نهرتني أو اعترضـت على أي شيء أردت فعله، حتى وإن اخطأتُ كانت تعـاتبني في خجل شـديد حـتى لا تغضـبني. أكـثر مـا كـان يحزنـني هـو نوبـات مـرض الصـرع الـتي تزورهـا من وقت إلى آخـر، علمت مؤخرا أن هذه الحالة بدأت تنتابهـا منـذ حملهـا بي، أخبرني أحدهم مرة وكان من الأشخاص الذين لا يفرقـون بين مـا يقـال وبين مـا لا يصـح أن يقـال أن أمي حـاولت الانتحار أثناء حملهـا بي وحـاولت قتلي مـرتين وأنـا رضـيع

وأنها كانت تعاني مرضًا نفسيًا أو تلبسها الجن ولكـني لم أخبرها بمـا عرفتـه من أخبـار الماضـي، وهـل يحـق لأحـد النبش في ماضي والديهِ.

كنت أنانيًّا جدًّا معها مثل حالنا جميعا مع أمهاتنـا ربمـا لأننـا نـرى أنهن لا يحتجن إلينـا فهن يعلمن كـل شـيء وقادرات على أي شيء ويـدبرن لنـا حياتنـا، فكيـف نفكـر أنهن من الممكن أن يكن في حاجة إلى مسـاعدتنا، فـوق ذلـك هن يـترفعن عن طلب المسـاعدة، لا معـنى للحيـاة بدونها فهي نعمة من نعم الله الكثـيرة عليّ، تعـودت على وجودها بشكل تلقـائي، ولم أفكـر يومًـا أن يحرمـني اللـه منها، لا يمكنني الاستغناء عنها وغيابها يعني غيـاب الحيـاة، معذرة لن أذكر اسمها لأننا نشأنا على أن اسم الأم عـورة ولا يحـق أن يـذكر أمـام أحـد، لا أعلم السـبب (عيب ولا يصح) هـذا هـو الـرد الـذي تلقيتـه على هـذا السـؤال وأنـا صغير، ربما نوع من الخصوصية، على أية حـال لن أذكـره. أحيانًا يجب أن تلتزم حـتى وإن لم تقتنـع؛ هـذا من مبـادئ مجتمعنا. بالطبع لم أسألها عن سنها قبل ذلك؛ فأمي مثل العطور كلما زاد عمرها زادت رائحتها جمالاً وتميزًا.

يكتمـل عقـد أسـرتي بوجـود شـيماء أخـتي الكبـيرة وصـديقتي العزيـزة وأمي الثانيـة، البنت الـودود الطيبـة القلب القليلة الكلام مثـل أمي، حينمـا تطـل عليّ بوجههـا البشـوش تبـدد عتمـة غرفـتي بعينيهـا العسـليتي اللـون الهـادئتي النظـرة بأنفهـا الـدقيق مثـل تصـرفاتها تسـتطيع شـفتاها ملاطفـتي وإجبـاري على الحـديث معهـا، اعتـدتها دائما تعطي بلا تفكير، تعلمت منها أشياء كثيرة، ودائما مـا كانت تخفف عني وطأة نفسي وضعف ثقتي، فهناك أشياء لا يمكنك إخفاءها مهما اجتهدت في ذلـك فكنت أبـوح لهـا بكـل شـيء رغمًـا عـني، بعـد أن أنهت دراسـتها رفضـت العمـل واختـارت أن تظـل في الـبيت تسـاعد أمي بنفسٍ راضـية وتنتظـر الـزواج كـأي بنت تحلم بـأن تصـبح زوجـةً

وأمَّا، ارتبطت مــرتين من قبــل، ولكنهــا لم توفــق في تجاربها مهمـا اختلفت أسـباب عـدم التوفيـق، ولكنهـا في النهاية كانت راضية ومقتنعة بقرارها. كـانت تحب خطيبهـا الأول، ولكن الحقيقة أنـه كـان حبًّا من طـرف واحـد وهـو شيماء، عانت منـه كثـيرًا ولكن الفشـل كـان مصـير حبهـا الذي ربما أهانت نفسها في بعض المواقـف للـدفاع عنـه. سيظل الحب من أجمل المشاعر الإنسانية الـتي يصـادفها الإنسان في حياته ولا حاجة لنا في وصفه وتعريفه، يكفينـا أن نشعر به، ولكن مـاذا يفعـل الإنسـان إذا كـان حبـه من طرف واحد؟ هذا النوع من الحب يضع الإنسان بين رحايـا مشاعره تطحنه ليل نهار، يقضي وقته وهو يفكـر بشـخص لا يشعر به، والأصعب من ذلـك إن كـان يشـعر بـه ولكنـه زاهـد في حبـه، تفكـير ليـل نهـار، تعلـق بـأدق التفاصـيل، تؤرقه الغيرة المكبوتة التي لا ترى النور وكيـف يغـار على من لا يبادلـه الحب. حالـة من التشـتت والغمـوض تحتـل مصـيره وهـو يـرى نهـر مشـاعره العـذب يصـب في بحـر أجاج، يغتال كل يوم أي إحساس جميل يشعر به نحو هــذا البعيــد عن حــدوده، يــرى ورود الحب ولا ينالــه منهــا إلا أشواكها، يجلد ذاته كل يـوم على ذنب اقترفـه قلبـه، وفي النهاية يواجه الحقيقة ويضطر مستسلمًا مهزومًا الرضــوخ للأمر الواقع ومحاولة النسيان، ويمني نفسه بحب متبــادل يعوضه عن كل هـذا، فـالحب من طـرف واحـد مـا هـو إلا عذاب من طرف واحد.ـ

كنت ألمح الحزن يختـبئ تحت أهـدابها عنـدما تحضـر أي زواج لفتـاة أصـغر منهـا في السـن، حـتى وإن لم يكن في داخلها أي نية للحزن، تجد من يتعمد أن يـذكرها بأنهـا يجب أن تكون حزينة وتنـدب حظهـا لأنهـا لم تـتزوج حـتى الآن. عقليـات سـخيفة تشـع بعبـارات سـخيفة تنتشـر في مجتمع أشـد سـخافة، زادت نظراتهـا حزنًـا بعـد أن دخلت عامها الثلاثين، أصـبح أي حـديث عن الـزواج أو مجـرد أي

تلميح من قــريب أو من بعيــد يوترهــا ويفقــدها توازنهــا ويشــعرها بــالنقص، يكفي مشــهد في مسلســل أو فيلم يناقش كلمة العنوسـة حـتى تستشـيط غضـبًا وتنتقـد هـذا اللفظ ثم تغادر المكان وهي غارقة في دموعهـا، نعم كنت أتألم من أجلها وكنت أتمـني أن أراهـا سـعيدة رغم أني لا أعلم كيف ستكون الحياة بدونها، قاسٍ مجتمعنـا؛ يحاسـب الفرد على ذنب لم يقترفـه ويعاقبـه ويصـدر أحكامـه دون رحمة.

كنت قلقًا جدًّا عليها بسبب زيادة غضبها هذه الفـترة على أتفـه الأشـياء وأنهـا أصـبحت تجلس بمفردهـا كثـيرًا وتتجنب الأحــاديث الطويلــة وتقضــي أغلب وقتهــا داخــل غرفتها ترسم وتلون لوحاتها الجميلة الطفولية التي تهديها للأطفال من العائلة أو من الجيران.

كنت دائمًـا أحسـدها على موهبتهـا وأداعبهـا بقـولي كيف تكـونين رسـامة مـاهرة وتـتركين أخـاكِ المسـكين لا يعلم كيف يرسم بطـة؟ فـترد مبتسـمة: أنت أيضًـا تمتلـك صوتًا جميلًا وأنا صوتي يشبه البطـة الـتي لا تسـتطيع أنت رسمها، هل صمت قليلا يا عندليب زمانك؟

كانت دائما ما تختم حوارها معي بإطراء لطيف..

نعم ربما نبهني البعض لأني أتمتع بصـوت جميـل مـع أني غير مقتنع بذلك، وأعـرف أني أفتقـد أي موهبـة، لكن تعليـق شـيماء على صـوتي لم يشـغل تفكـيري أكـثر من جملتها أننا نختلـف كثـيرا في صـفاتنا؛ أنـا بعيـني السـوداء وبشـرتي الـتي تميـل إلى السـمار قليلا وملامحي الحـادة وقـامتي المرتفعـة وهـدوئي القاتـل لا أشـبهها في عينيهـا العسليتين وشـدة بيـاض بشـرتها وقصـر قامتهـا ومرحهـا. شيماء كانت مزيجًا من شكل أمي وطبع أبي، وأنا لا أشبه أحدًا منهما، لا أمي ولا أبي ولا شيماء!

كان أهم عيوب أسرتي هو غياب المجاملات اللطيفـة الـتي تنشـر حالـة من الـود والعرفـان والحب بين أفـراد

الأسرة، نعم كنا أسرة متماسكة نكِن لبعضنا البعض كل الاحترام والتقدير، لكن الاحترام الزائد عن اللازم يخلق جفاءً بغيضًا، لا أرى عيبًا في مدح الأم عندما تعد لك طعاماً لذيذًا، من الواجب أن تجبر خاطرها بثناء ينسيها تعبها في إعداد الطعام، ولكننا نتغافل وهي لا تنتظر، ما العيب عندما ترى الوالد قد حضر مرهقًا من العمل أن تظهر له العرفان والتقدير لما يتحمله من أجلك، تستطيع الكلمات اللطيفة عندما تأتي في وقتها أن تنسف جبالاً من الجفاء يقف على قمتها الصمت.

الفصل الثالث

الحلم..

أحجار تحت ظهري، برد شديد ينتاب جسدي، أحرك يدي فتغوص في الطين، أفتح عيني لأجد أغصانًا متشابكة تتساقط منها قطرات المطر، لحظات واستوعبت الأمر، ممدد أنا تحت الشجرة العتيقة أحاول النهوض ولكني لا أستطيع، من داخل الجذور أجد إضاءة باهتة، عينان تقتربان من الفراغ يزداد بريقهما، تتضح الآن الرؤية، طيف قاتم يخرج من بين الجذور ويتقدم نحوي، يمد يده يجذبني إليه؛ يتملكني الخوف؛ أصرخ بلا صوت، خوف يحتل كياني يتمكن مني، الآن يشد صاحب الطيف يدي بقوة يجرني جرًّا إلى متاهات الجذر، أقاوم وأقاوم، أصرخ: دعني وشأني لا أريد الذهاب معك. يجذبني أكثر، يرمقني بنظرات نارية في صمته المخيف، أجد يدًا أخرى تجذبني فتاة لا يظهر من وجهها المختفي تحت وشاح إلا العينان الزرقاوان، تبتسم ابتسامة هادئة لا تتماشى مع ما أعانيه تدهشني شجاعتها وهي تنظر لي ولا تخشى من هذا الشيء الذي فجأة يترك يدي ويدير ظهره متجهًا إلى حيث أتى، ثم يتوقف مديراً ظهره لألمح على عباءته النجمة التي اعتدت رسمها، يدير وجهه لي بنظرة عتاب

كأني خذلته في أمر ما، يختفي رويدًا رويـدًا، يفتح لـه بابًـا داخل الجذر ويُغلق وراءه، أتجه إلى الفتاة فأجـدها اختفت هي الأخرى.

استيقظت حينها على صوت شيماء تنـاديني وتهـزني بقوة

_ استيقظ يا عمر ستضيع عليك صلاة الفجر،

لأجد نفسي داخل غرفتي ممدًا على سريري،

_نعم نعم استيقظت كفاكِ صفعًا على وجهي. جاوبتها.

لا تعلم أني كنت أتوســل إليهــا لتنقــذني من هــذا الكابوس، لم تراودني الأحلام المزعجة منذ فـترة طويلـة، كنت دائما مـا أسـتيقظ مفزوعًـا أو توقظـني أمي بعـد أن تسـمعني أنـادى وأسـتغيث في أحلامي، كنت أجـد نفسـي قابضًا علي رقبتي بقوة أخنق نفسـي أو أشـعر بـأني كنت في عالم آخـر هابطًـا بجسـدي على فراشـي ببطء شـديد تضـايقت بعض الشـيء من الكـابوس ومن ذكـرى الأحلام المزعجة وعودتها للظهور مرة أخرى. نادتني شـيماء مـرة أخـرى من غرفتهـا فجاوبتهـا ثم نهضـت وتوضـأت ونـزلت أؤدي صلاة الفجر في المسجد.ـ

الفصل الرابع

إلى الجامعة..

عدت من المسجد وكان الطقس باردًا قليلًا، لكنه منعش ممـا يـوحي بيـوم جميـل، دخلت الـبيت فوجـدت شيماء في المطبخ.

_ صباح الخير يا شيماء

_ صباح الخير يا أخي

_ ألم تنامي بعد؟

_ لا، ماذا تريد يا عمر، ماذا تُخفي؟

_ ما رأيك لو أعددتِ لنا القهوة؟ أريد أن أتحدث معكِ.

_ قهوة! ألن تعود إلى النوم؟

_ لا، أنا ذاهب إلى الجامعة.

ذاهبًا إلى الجامعة، يا الله كيف أعبر عن فرحتي عليكِ أن توقظي النائمين لتنبئيهم بهذا الخبر

ذهبت إلى غرفـتي وأعـددت ملابسـي، دقـائق وحضـرت شيماء بالقهوة.

وجلسنا في حجرتي على طرف السرير.

_ لماذا ستذهب إلى الجامعة اليوم؟

_ لأتابع مواعيد الاختبارات

_ حسنًا، ماذا بك يا عمر، تبدو قلقًا ؟

_ رأيت حلمًا غريبًا بعض الشيء.

_ يجوز أن تقصـه عليَّ إن كـان جميلًا، أمـا إن كـان قبيحًـا فاحتفظ به لنفسك.

_ ومـا رأيـك إن كـان مزيجًـا من الجمـال والقبح، فكيـف أتصرف؟

_ ومنـذ مـتى وأنت تُحسـن التصـرف؟ فلتقصـه على أيـة حال.

استمعت شيماء إليّ بإصغاء شديد وهي تحتسي قهوتها في هدوء، وتابعتُ بتركيز تعبيرات وجهها، لم تقاطعني مطلقًا حتى انتهيت من حديثي، فسألتها: هل عندك تفسير يا علامة عصرك؟

ضيّقت عينها في تركيز وقالت: لا أعلم يا ولدي ولكن هذه الشجرة تسيطر على تفكيرك منذ طفولتك، وزاد اهتمامك بها بعد أن علمت بأن جد والدنا هو من زرعها، وهذه النجمة أراك لا تتقن رسم شيء غيرها، أظن أن حلمك ما هو إلا تراكمات في عقلك الباطن.

_ وماذا عن الفتاة؟

_ هل تعرفها؟

_ لم أر منها إلا عينيها

- وهل كانت جميلة إلى الحد الذي يجعلك هائمًا هكذا عند ذكرها؟ رمقتني ساخرة.

تغير لوني خجلًا.

ابتسمت ابتسامة عريضة، مرددة: لا أعلم إلى متى ستظل خجولًا هكذا؟

_ أظن أنه من الأفضل أن نواصل حديثنا عن الحلم وكُفي عن السخرية.

- لا أعلم ما هذه الأحلام التي تزورك، شجر وعفاريت، أنت مُتعِب حتى في أحلامك.

_ أنا المخطئ كيف تخيلت أنك ستساعديني في هذا الأمر، اذهبي إلى النوم يا شيماء خير لي ولكِ، فقذفتني بالوسادة، ثم استرسلت بجدية قائلة:

_ لا تقلق يا عمر؛ لا أظنه شيئًا سيئًا، أنت طيب القلب فلا تظن إلا خيرًا في مستقبلك.

_ أتمنى ذلك يا عزيزتي، ثم بدأت أستعد للنزول وذهبت شيماء لإيقاظ أبي ليذهب إلى عمله..

ارتديت ملابسي ونزلت إلى الشارع، خمس دقائق فقط تفصلني عن مكان الحافلة التي ستوصلني إلي

الجامعة، قـابلت في طـريقي شخصـين أعرفهمـا وتبادلنـا التحية، انتظرت بعض الوقت في المحطة أنظر إلى وجوه الناس، فوجـدت بعضـها غاضـبًا من الاسـتيقاظ مبكـراً في هـذا الـبرد والآخـر مستسـلمًا لسـعيه اليـومي دون أدنى مقاومة، وكالعادة بدأت أفكر في رد فعل كل من تتقـاطع نظراته مـع نظـراتي، ففي الشـارع تـرى كـل الأحاسـيس وتتقاسـمها بـالنظرات القصـيرة مـع أشـخاص لا تعـرفهم، وصـلت الحافلـة وركبت فيهـا، لم أدخـل في صـراع مـع الركـاب وانتظـرت حـتى صـعد الجميـع لأني أعـرف في النهاية أني سـأكمل طـريقي واقفًـا، اسـتمتعت بمشـاهدة البحر لقـد افتقدتـه كثـيرًا، لم أشـاهده تقريبًـا منـذ شـهر، شعرت بأنه يعاتبني على غيابي بكبريائه المعهود، تربطـني به علاقة قديمة، ربما كان أعـز أصـدقائي وأوفـاهم، دائمـا أذهب إليه ودائمًا أجده يستمع إلى حديثي دون أن يتململ مني، أتخيله يحتضنني أحيانًا وينصحني كثيرًا، وغالبًا ما كان يأمرني في نهاية كل لقـاء بـالرجوع إلى حيـاتي ومواجهـة مشكلاتي وعدم الهرب منها، ودائما ما كنت أخذله، أتـذكر هـذا المكـان جيـدًا عنـدما كنت في العاشـرة من عمـري ونهرني أبي لشـيء مـا فخـرجت من الـبيت مهـددًا بعـدم الرجـوع مـرة أخـرى، يبـدو أني موهـوب من صـغري في الهروب، لم أعـرف أين أذهب حـتى سـاقتني قـدماي إلى هذه الصخور على الشاطئ. أذكر أني قصصت على البحر سبب هروبي إليه، وأتـذكر صـوته عنـدما أمـرني بـالرجوع إلى المــنزل، مؤكــداً حب أبي لي، وأنــا أســتنكر بشــدة أوامره، وخلال حديثنا تفاجأت بأبي بعيون مضـطربة يبحث عني، لا أعرف كيـف هـداه تفكـيره إلى هـذا المكـان، في لحظات تحول غضبي إلى شفقة على والدي وأنـا أراه في هذه الحيرة، مشيت خلفه يفرق بيننا بعض خطوات وهو لا يراني، ثم سرت موازيًا له حتي يقع بصره عليّ ويشعر أنه نجح في البحث عني ووجدني ويوفي بوعده لأمي بأنــه لن

يعود إلى المنزل وإلا وأنا معه كما أخبرني بعد ذلـك، كـان ينتابني بعض الخـوف من ردة فعلـه، لكن ذاب كـل شـيء تحت حـرارة دموعـه ودفء أحضـانه. ربمـا كـانت المـرة الأولى في حيــاتي الــتي أرى فيهــا أبي يبكي ويعتــذر لي حينها احتقرت نفسي، وهي المرة الأولى أيضا التي أشـعر فيهـا أن أبي يحبـني، واصـطحبني أبي تحت ظـل ذراعـه، لأرى البحر يلوح لي بأمواجه مودعًـا ولسـان حالـه يقـول: ألم أخبرك بذلك؟

الفصل الخامس

في الجامعة...

عدتُ من رحلة ذكرياتي مع البحر التي لم تفشل أبدًا في القضاء على ملل زحام السيارات وضجر الطريق، لأبدأ مغامرة جديدة في عبور الشارع. ربما كان اختبارًا حقيقيًّا وعمليًّا جدًّا لتوقيت اتخاذ القرارات، وقفت مترددًا بعض الشيء منتظرًا لصحبة تساعدني، دائمًا ما كنت مترددًا أفكر كثيرًا في كل شيء وأي شيء، الخوف من مواجهة متاعب الحياة يجعلك دائما تتخذ قرارات خاطئة، ربما لو تحليت ببعض الشجاعة لتغيرت حياتي، كنت أحسد بعض الناس أحيانًا على شجاعتهم في مواجهة متاعبهم، تمنيت لو يعيروننني القليل منها ليساعدني في الحياة.

عليّ العبور، مللت الخجل من نفسي في هذا الموقف وتمثيل استمتاعي بمشاهدة البحر؛ لأني دائمًا ما كنت أتخيل أن هناك من يراقبني وأن العالم بأكمله ينتظر أخطائي والبحر يبتسم في مكرٍ وأمواجه تهدر شامتة بي، تقدمت في توقيت خاطئ كالعادة؛ كادت سيارة تصدمني لولا أن تفادى السائق جسدي في آخر لحظة، ثم وقف على مسافة قريبة مني يقذفني بوابل من الشتائم أحسده على حفظها ونطقها بهذا الترتيب والسلاسة المتناهية التي تدعو للإعجاب مع أنها لا تلائم سيارته الحديثة، وأنا أنظر له بابتسامة ميت لألوح له في النهاية معتذرًا ليعود إلي سيارته بعد أن أفرغ ذخيرته الحية في وجهي المنكود وتأكده بأن خصمه ليس على مستوى ثقافته ولا يفكر في الشجار معه..

أكملت طريقي بحنق شديد على نفسي، كانت عندي رغبة شديدة في إشعال سيجارة أهدئ بها سخطي،

ولكنـني لم أتعـود أن أدخن وأنـا أمشـي في الزحـام، تبًّا لعاداتي.

وصلت إلى بوابة الجامعة وتوجهت إلى المكان الـذي أجد فيه جدول الامتحانات،وكان كالعادة معلق علي زجـاج نوافـذ الـدور الأرضـي، بحثت عن جـدولي ثم اهتـديت لـه وأخرجت ورقة كنت وضعتها في جيبي لهذا الغـرض لكـني نسـيت إحضـار القلم. نظـرت حـولي لأبحث عن وجـه من الوجوه الطيبة الـتي تشـجعك على طلب المسـاعدة منهـا لأستعير قلمًا، وجدتها على بعد خطوات مني، ذهلت عندما رأيت عينيها الزرقاوين نفس عيون الفتاة الـتي رأيتهـا في الحلم، تقدمت إليها لا أحيد نظري عنها حتى اقتربت منهـا ثم توقفت مثل التمثال ، كانت جميلة وكل مـا فيهـا يـدعو للتأمل.

انتبهت على صوتها العذب تناديني، ماذا تريد؟

جاوبتها بعـد معانـاة، هـل أسـتطيع اسـتعارة قلمـك لبضـع ثوانٍ.

رمقتـني بنظـرة اسـتغراب ثم أعطتـني قلمًـا من حقيبتهـا تفضل، ولو سمحت لا تدعني أنتظرك كثيرا.

عدت إلى جدولي أنقلـه، لم تحـد نظرهـا عـني كأنهـا تخشــى أن أســرق القلم منهــا وأركض هاربًــا، بادلتهــا النظرات أشاحت بوجههـا عـني وتـأففت في فتـور، عـدتُ إليها قائلا:

_ أشكرك، آسف لو أزعجتك.

_ لا تتأسف، لم يحدث شيء.

تنحيت عنها قليلًا لكني لم أبتعد، تطرقت بنظري إلى ما تدونه؛ وجدتها أخطـأت وتخطت يومًـا في الامتحـان لم تدونه، فأسرعت محذرا:

_ أظن أن هناك شيئًا خطأ.

قالت بنبرة ساخرة:

_ أي خطأ تقصد؟

من الطـبيعي أن تسـخر من شـخص كـاد يقتلـه الارتبـاك نسي قلمه ويـأتي لينتقـدها ويخبرهـا بأنهـا مخطئـة، لكـني تماديت:

_ أعتقد أن هناك يومًا لم تدونيه في مواعيـد الامتحانـات.

قلتها بكل فتور مشيرًا بيدي إليـه، بنظـرة سـريعة قـارنت بين مـا نقلتـه وبين مـا هـو معلـق على الحائـط لتسـتحيل حالتهـا من ازدراء لي إلى اعتـذارات متكـررة وشـكر متواصل بعد أن احمر وجهها خجلاً فبدت أجمل، وقالت:

_ أنا آسفة، كيف حدث ذلك؟! شكرًا جزيلًا لك.

شعرت بلذة انتصار وأظهرت تواضعي.

نظرت لي بابتسامة هادئة مشرقة وقالت متوددة:

_ هذه أول مرة أراك فيها، هل انضممت حديثًا للجامعة؟

_ لا لم أنضم حديثا، ولكني لا أحضر معظم الأيام.

_ إلى أي فرقة دراسية تنتمين؟

_ أنا في الفرقة الثانية، وأنت؟

_ الرابعة.

سرنا متوازيين دون أدنى رغبة مني في الانصراف أو ختـام الحـديث معهـا، عيـني تتفحصـها، ظهـرت شـديدة الجمال ترتدي ملابس جميلـة وليسـت لافتـة، ربمـا كـانت مثلي في انجذابي لها، لكنها أظهرت عكس ذلك وقالت:

_أكرر شكري لك يا.... ما اسمك؟

_ أنا عمر، وأنتِ؟

_ حنين.ـ

صمت ناظرًا إليها في بلاهة، وأخـذت انظـر إلي قـدميا ثم إليها، غبادرتني بأبتستامة ودودة قائلة:

_ يجب أن أذهب الآن، إلى اللقاء.

لوحت بيدها برقة شديدة ثم ذهبت ترافقهـا نظـراتي إلى أن عبرت بوابـة الجامعـة وفاجـأتني التفاتتهـا فـالتقت عينانـا كأنهـا تقـول لن تكـون المـرة الأخـيرة، لكن كيـف سيرتب القدر صدفة لقائنا مرة أخرى؟ أمر صعب، لكن لا

يهم، سـأنتظر، سـرت إلى مكـان منطـوٍ بعيـد عن الطلبـة وأشعلت سيجارة، تملكني شعور غريب ولسان حالي يردد كيف استطعت أن أفعلها.. حنين حنين، لسـاني يـردد دون توقـف، أسـتعذب النطـق باسـمها كأنـه أغنيـة، أمُج من سيجارتي التي شعرت أنها تشاركني فرحتي، أخذت أعيـد كلامي معهـا مـرات ومـرات على عقلي حـتى لا ينسـى وجهها وابتسامتها، وكأني أخبره أن يخفي هذه الفتـاة بمـا يخصـها في أثمن خلايـا الـذاكرة، انفصـلت للحظـات عن العالم وشعرت بأني ولأول مرة في حياتي إنسان طـبيعي قادر على إدارة حوار مع فتـاة جميلـة وإنهائـه على أكمـل وجـه. كـانت حـالتي تـدعو للسـخرية حقًّا، لكـني كنت مسـتمتعًا على أي حـال بهـذا الحـدث الغـريب في حيـاتي العادية.

أنـا دائمـا مـا كنت بعضًـا من كـل، فـردًا في أسـرة، طالبًا في مدرسة، عضوًا في فريـق، لم أكن أبـدًاا محـورًا في حياة أحد، لم يكتفِ بي أحد عن العالم قبل ذلك، كيف استطعت أن أسرق حنين من دنيتها حتى لو لبضع دقائق.. عـدت إلى مـنزلي بـدون أي حـوادث تضـاف إلى سـجل خيباتي، ودخلت غرفتي مستمتعًا بكل شـيء حـتى صـراخ جارتنا على أبنائها الصغار رأيت فيه حنان الأم، ثم اخـترت أن أنام ساعتين مستغلًا استرجاع ذكراهـا كمنـوم أجربـه لأول مـرة وأجـرب كيـف للإنسـان أن يعيش على أمـل الوقوع في الحب..

الفصل السادس

عم سلامة الصعيدي..

استيقظت من نومي، بعد صلاة العشاء نمت فترة أطول مما كنت أتوقع، تـذكرت ابتسـامة حـنين بمجـرد أن عادت روحي الهاربة أثنـاء نـومي، قمت منتشـيًا بـذكراها، تلك النجمة التي لمعت في ظلام حياتي وجعلتني أقتنع أن الحياة رغم قسوتها تحمـل بين طياتهـا أشـياء تسـتحق أن تُعـاش، خـرجت من غرفـتي لتنـاول العشـاء مـع أسـرتي، أكلت بشـهية مسـتمتعًا بطعـام أمي اللذيـذ لدرجـة لفتت نظرهـا، مثلمـا كـانت رغبـتي في الحـديث معهم أكـثر من المعتاد لافتة أيضا.

شعرت بعدها برغبة في التغير ولما لا، يجب أن أغيّـر من نفسي، يجب أن أعـالج عيـوبي وأتغلب عليهـا، تعجبت وقتها من قـدرة النسـاء على تغيـير حيـاة الرجـال يكفيهن فقط أن يزرعن فيهم الرغبة.

قــررت أن أذهب لعم ســلامة وأقضــي معــه بعض الوقت، من المؤكد أنه يحمل خبرات كثـيرة ربمـا بحـديثي معــه أســتفيد منــه لتغيــير شخصــيتي وجعلهــا مســتعدة لمواجهة الحيـاة وقتـل الخـوف والخجـل اللـذين يفسـدان عليّ حياتي. هذا كان دافعي للذهاب إليه.

ولكـني تسـاءلت: لمـاذا ترتبـط الحكمـة دائمًـا بكـبر السن؟ هـل على الإنسـان أن يكـدح في حياتـه كـدحًا إلى النهاية؟ حتى خبرته التي اكتسـبها لا يتمتـع بهـا إلا قليلًا ولا يستفاد منها إلا في أن يكون مصدرًا للنصائح. هـل سـأظل طوال حياتي أتلقى الـدروس؟ أعلم أن حكمـة اللـه أعلى من مسـتوى التفكـير، كـل مـا أتمنـاه أن أعـبر حيـاتي بالطريقة التي تجعل لقائي بربي أسعد لحظاتي..

ما أعرفـه عن عم سـلامة أنـه جـاء من الصـعيد إلى حيِّنا مع والده منذ فترة طويلة، وعاصر كل التغيرات الـتي مرت بها الأماكن والأشخاص، ويسكن وحيدًا في بيت على أطراف الأرض المهجورة الـتي تقـع على حـدود المنطقـة التي أقطنها، ويعمل حارسًا عليها خلفًا لوالده الذي اختفى منذ سنين، كان يغيب فترات طويلة ثم يعود لا يخـبر أحـدًا أين ذهب؟ وماذا فعل؟ ولماذا عـاد؟ يكتنفـه الغمـوض في كل شيء.

كــان صــديق أبي في فــترة من الفــترات لكن الصــداقة أصبحت عداوة ورأيت أبي كثـيرا يتعمـد إهمـال تحيتـه في الطريق، رغم أن عم سلامة مازال لا يمل من إلقاء التحية عليه وهو متأكد من أنه لن يتلقى الرد؛ ولهذا لم أخـبر أبي أني أذهب إليه منعًا لمشكلات قد تحدث لي بسبب ذلك..

كان الجو شديد البرودة ولكن السماء خالية الوفـاض من السـحب، وجدتـه تحت الشـجرة مشـعلًا نـارًا شـارد الذهن يطلق العنان لبصره في الفراغ بوجـه أسـد عجـوز، يعتمد على شهرة هيبته لإبعاد الناس عنه.

_ السلام عليكم يا عم سلامة.

- وعليكم السلام يا عمر، اجلس يا ولدي.

_ هل تمانع في أن أشرب الشاى معك.

- وهـل لي أن أمـانع مشـاركة الشـاى مـع ابن صـديقي العزيز.

نهض وأحضر برادًا ووضع فيه الماء من زجاجـة بلاسـتيكية بجانبه، ثم أرقد البراد العتيق مثل صاحبه على جمـر النـار كأنه يعاقبه على صحبته كل هذه الفترة.

_ لماذا تجلس وحيدًا دائما ؟

سألته.

جاوبني مبتسمًا:

_ ولماذا تفترض أني بمفردي يا عمر؟

_ لا تحـاول إخـافتي بهـذه الإشـارات سـأتركك وأذهب..
فضحكت.
_ لا تخشى شيئا يا ولدي .
وضحك حتى ظهرت أسنانه، ثم أردف يقول:
_ غدا عندما تمر علي قلبك السنين متجاهلة ما تثيره فيك من دهشة، ستطمئن إلي الوحدة وتجد راحتك في إعتزال الناس، ستتشـبع روحـك من الحـديث مـع البشـر ولا تريـد المزيد منه، ستقضي وقتك في التفكـير فيمـا قلتـه وفيمـا سـمعته، كـل شـخص مـر علي حياتـك سـلب منـك شـيء وترك لك أخر، أعتاد يا بني من الآن أن لا تعطي فـوق مـا تتحمل طاقتك، وأن لا تأخذ سوى حقك، حتي لا تنـدم بعـد فوات وقت الندم.
كنت أنظر إليه صامتًا أدقق في ملامحه كيـف غيرتهـا الذكريات من ابتسامة عريضة إلى وجـه عـابس فشـعرت بـالحزن يتسـلل إلى جلسـتنا وأنـا أريـد أن أحافـظ على حالتي المزاجية الجيدة، فغيرت مجرى الحديث:
_ هل سبق لك الزواج يا عم سلامة؟
- هل فقـدت وسـامتي إلي هـذه الدرجـة حـتي تشـك في ذلك؟
_ من الواضح أنك كنت كثير المغامرات.
- يابني النساء أجمل ما في الدنيا، ولكن عليك أن تتجنبهم قدر إستطاعتك.
تذكرت حنين وبوادر إعجابي بها فسألته:
_ هل زار الحب قلبك؟
- كثيرا عاشقا ومعشوقا.
_أريد أن أعرف ما يجذب النساء؟
عدل من جلسته ومال بجسده الضخم نحوي قائلا:
المرأة يا بـني مثـل الفـرس لا تعشـق إلا اثـنين؛ الفـارس الذي يسيطر عليها بقوتـه والسـائس الـذي يرعاهـا ويلـبي

مطالبها كخادما مخلصا، وعليـك أن تختـار من بينهم كيـف تحب أن تكون في حياة المرأة؟
_ وإيهما أجمل،العاشق أم المعشوق؟
- الاثنان مادام هناك عشق.
_ يقولـون أن الحب يـأتي مـرة واحـدة في العمـر، فهـل أحببت كل من تزوجت من النساء؟
ابتسم وهو ينظر إلي الفراغ ثم تنهد بعمق وقال:
-أول زوجـــة أحببتهـــا من كـــل قلـــبي وحققت مـــا أردت وتزوجت بها. كان حب مغرور يتخايل بنفسه وهـو محمـولا علي أكتاف الطيش والجنون ومـا لبثت أن تزوجتهـا حـتي رفضها عقلي وسقط حبها من قلبي يدس أنفه في الوحل مهزومًا.أما زوجتي الثانيـة فأخترتهـا بعقلي وبعـد عـام من الزواج تأكدت أنها لم تـدخل قلـبي ولم أدخـل أنهـا عقلهـا ففرت هاربة، فـتزوجت الثالثـة بعيـد عن أختيـارات القلب والعقل تزوجتها لأنها طباخة ماهرة ولكني أطلقت سراحها بعد أن ملت معدتي من أكلها.
أنفجر ضاحكا ومد يـده ليصـافحني سـاخرا من نفسـهِ في لحظة حميمية شعرت فيها كم كان هذا الرجل يتسلل حبه إلي قلبي رغما عنه وعني، ثم عقبت علي حديثه قائلا:
_ لا لا، لا أريد نصائحك أنا أريد أن أمر بالحب مـرة واحـدة وأتزوج من أحببت ولا أنفصل عنها حتي يفرقنا الموت.
_ أحسنت يا ولدى، لا تصبح كثير الـزواج مثـل والـدك.. ثم أطرق صامتاً بنظرة اخترقت عظامي.
_ والدي مكتفي بواحدة.
باغته بقولي ثم صـمتُ أنـا أيضـا، قطـع صـمتنا عم سـعيد الحلاق الـذي ألقى علينـا السـلام حينمـا كـان يمـر على الطريق الموازي للأرض المهجورة.
_صدفة غير مرحب بها.
نطق عم سلامة بتأفف.

بالطبع كنت أعرف مما توجس عم سلامة؛ لأن عم سـعيد الحلاق سيخبر أبي لا محالة أنه شاهدني هذا المساء، هـذا الرجل تستطيع اعتبـاره وزيـر الإعلام في الحي، يكفي أن تذهب وتجلس في صالون الحلاقة وتجد نفسك في وكالـة أخبار عالمية، ستخرج من عنده محملًا بكمية من الأسـرار التي أكد عليـك ألـف مـرة ألا تخـبر بهـا أحـدًا، وأنـه قالهـا بسبب حبه الشديد لك وهذا مـا يكـرره مـع كـل زبائنـه، لا أعلم كيف لديه القدرة على مواصلة الحديث طوال اليـوم دون ملل. كان من أهم مصادر أخباره الأطفـال، يجتـذبهم بـالحلوى ويـتزود منهم بـأخطر أسـرار بيـوتهم. يسـتطيع الأطفال نقل أخطر الأسرار وهم يضحكون ويسخرون من تفاهة الكبار، كيف يعتبرون هذا الكلام التافه سرًا؟ ولماذا يشددون عليهم بعدم النطق به أمام أحد؟، نعم مـا يقـدره الكبار يصبح عند الأطفـال قليـل القيمـة والعكس صـحيح، كـانت أمي تشـدد عليَّ بعـدم التحـدث معـه، وكنت ألـتزم بأوامرها. ولهذا لا يحبني؛ لأنه لا يستفيد مني بأي معلومة.
أخذت رشفة من الشاي مستمتعًا بدفء الكوب في يـدي، ثم سألته:
_ألم تنجب لك زوجاتك الثلاثة؟
- بنت واحدة.
قال بنبرة حزن.
_من والدتها؟
_الثانية.
_ولكني لم أسمع من قبل أن لك ابنة؟
_ لم أرها منذ أن كانت رضيعة، لقد كبرت وأصـبحت فتـاة يافعة.
_ هل تعيش في الصعيد؟
_لا يـا ولـدي،هي هنـا في الإسـكندرية، أمهـا تـزوجت منـذ وقت طويل .
_ولماذا لا تزورها وتزورك؟

_حاولت ولكني تراجعت عندما علمت أن والـدتها أخبرتهـا أني توفيت،هذا أفضل ليّ ولها .
_أين تعيش؟ وسـأذهب إليهـا وأخبرهـا أنـك حى تـرزق وسأتي بها إلي هنا.
_لا يا بني،لا تفعل. أنـا أعـرف أخبارهـا من وقت إلي أخـر رغم شوقي لها ورغبتي في ضمها إلي صدري، ولكن هـذا أفضل لها.

تنهد عم سلامة ونظر لي بتمعن لا يحيـد نظـره عـني حتى شعر بالقلق والتوتر الـذي ظهـر على وجهي من أثـر تحديقه بي، فابتسم وأخذ يدندن بأغنيـات قديمـة. لاحظت عذوبة صـوته، أدهشـتني رغم أن صـوته الطـبيعي لا يـدل على ذلك كحال كثير من المغنيين والمغنيـات. ثم شـاركته الدندنـة؛ فلمعت عينـاه من الفـرح، انخرطنـا في أحـاديث كثيرة واسـتمتعت بتحليلـه للحيـاة ونظرتـه للأمـور. وعنـد الساعة الثانية عشـرة ودعتـه ووعدتـه بـأن أكـرر الزيـارة قريبًا.

شعرت أن هذا الرجـل لم يتحـدث منـذ سـنين وكأنـه رغم عزلته التي اختارها بيده كـان يحتـاج إلى من يسـمعه يحتاج إلى أن ينخرط في حديث يريحه من عنـاء التفكـير المتواصل. رأيت في عينيه وهـو يسـرد حكاياتـه اسـتعدادًا للعطاء، يريد أن يخرج ما بداخله ولا يموت معه، أعتقد أن أجمل هدية تستطيع تقديمها لكبـار السـن هي أن تـتركهم يتحدثون عن الماضي وتظهر حُسن الاستماع والاسـتمتاع، شعرت بالكلمات تخرج من فمه وكأنه ينتزعها انتزاعًـا من صدره، كنت أفكر في أن أقص عليه الحلم المـزعج لكـني نسيت أو خفت من تفسيره على ما أظن، اليـوم حكى مـا أراد أن يحكي، ولكني في المـرة القادمـة سـأثير الحـديث معه عن مواضيع تجنب الجدال فيها أو الاقتراب منها، رغم تلميحاته الكثيرة لي بأن حيـاتي سـتتغير قريبًـا، ربمـا رأى

في كتمان الأمور أو تأجيلها لحين يأتي وقتها راحتـه، ولكن ليس في الحياة راحة، وهذه هي عبارته المفضلة...

الفصل السابع

خلاف قديم..

قضيت الأيام في استعدادي للامتحانات، لم أقم بزيـارات طويلـة لعم سـلامة، كنت أطمئن عليـه من وقت لآخر، لم أنسَ حنين بالطبع، وانتظرت بلهفـة مـرور الأيـام حتى أتمكن من رؤيتها مرة أخـرى، أيـام عاديـة لا أحـداث تـذكر، اليـوم دخلت عليّ شـيماء غرفـتي تخـبرني أن أبي يريد رؤيتي فلبيت النـداء على الفـور، وجـدت أبي جالسًـا في غرفـة الاسـتقبال على أريكـة متوسـطة الحـال كـأي شيء في حياتنا حتى بحرنا يسمونه المتوسط، شـقتنا في الطابق الثالث في بناية عمرهـا من عمـر جـدي المتـوفى منذ أعوام كثـيرة، شـقتنا تتكـون من ثلاث غـرف مختلفـة الاتساع أكبرها كانت لأبي وأمي بحكم الأقدمية في البيت، وغرفة أخـرى كنـا نتشـاركها أنـا وشـيماء ثم انفصـلنا بعـد نضوج شيماء وتخليها عن لقب طفلة رغمـاً عنهـا، مـع أني مـا زلت أراهـا طفلـة. وربمـا كـل بنـات حـواء لا يغـادرن

مرحلة الطفولة حتى وإن كانت أجسادهن وأعمـارهن لهـا رأي آخر، غرفتها تخبرك أنها غرفة بنت بما فيها من ألوان مبهجــة وتنسـيق رائـع ونظـام، وكـانت تملؤهـا اللوحـات المختلفة، أما الغرفة الثالثـة والـتي كـانت صـالونًا صـغيرًا أصـبحت غرفـتي الخاصـة بسـريري الـذي يتسـع لشـخص واحد فقط ومكتب كنت أستخدمه عند المـذاكرة وكرسـي هــزاز كنت أقضــي عليــه معظم وقــتي ليلًا تحت شــباك الغرفة الذي لم يأتني منـه سـوى أصـوات ضـجيج أطفـال الشارع نهارًا ويذكرني بظلمة الليل ووحدتي.

ربمـا شـعرت بإحسـاس الوحـدة عنـدما أصـبحت لي غرفة خاصـة، في بدايـة الأمـر لم أكن أطيـق الجلـوس أو النوم فيها، وكنت أتسـلل ليلًا وأطـرق بـاب غرفـة شـيماء لأجلس معها وكانت تتجـاهلني متعمـدة حـتى أعتـاد الأمـر وبالفعـل اعتـدت على الوحـدة، ولكـني اعتـدت أكـثر من اللازم وكنت أدافع بكـل أسـلحتي للحفـاظ عليهـا، لا أعلم كيف أقنعت نفسي أن وحدتي هي حريـتي الشخصـية، أي حرية تجد لها لذة بين أربعة جدران؟

_ السلام عليكم يا أبي.

_ وعليكم السلام، كيف حالك يا عمر؟

_الحمد لله بخير.

_كيف حالك دراستك؟

_على أحسن حال، اطمئن يا أبي.

لاحظت أن والدي قص شعره، فاستنتجت ما سبب طلبه لرؤيتي وانتظرت صامتًا.
- أخبرني سعيد الحلاق بأنك كنت جالسًا مع سلامة الصعيدي، هل حدث ذلك فعلا؟
امتقع لوني وجاوبته في ارتباك:
_ نعم كنت جالسًا معه منذ مدة.
- فِيمَ تحدثتما؟
_لم يكن هناك موضوع محدد، مجرد دردشة عابرة.
في محاولة مني لعبور الموقف قلت:
_ إنه يحبك جدًّا يا أبي.
انتفض أبي من جلسته بحركة عنيفة واحمر وجهه غضبًا وصاح:
- يحبني أو يكرهني، لا دخل لك بذلك، وأحذرك من الجلوس معه مرة أخرى.
_ سمعًا وطاعة يا أبي، ولكني أريد أن أعرف السبب؟
- هكذا بدون أسباب.

انفعل أبي وتغيرت تعبيرات وجهه بصورة لم أعهدها عليه من قبل، كانت أمي وشيماء تراقبان الحديث من بعيد وبمجرد انفعال أبي انضمت أمي إلينا بعد أن ظهر عليها التوتر والاضطراب وخشينا عليها، فتدخلت شيماء وطلبت منه الهدوء ومني الانصياع للأمر.
انسحبت إلى غرفتي يتصارع في عقلي ألف سؤال وزاد فضولي لأعرف سر أبي وعم سلامة.
وسألت شيماء التي لحقت بي إلى غرفتي:
_ كيف حال أمي الآن؟
_ ذهبت إلى غرفتها، وتركتها ترتاح.
_ لماذا لا يحب أبي عم سلامة يا شيماء؟
_ لا أعلم ولا أريد أن أعلم، أنا أخاف من هذا الرجل ولا أحب رؤيته.

_إن تحدثتي معه ستغيرين رأيك.
_ ومن أخبرك أني أريد التحدث معه؟ وأنت أيضا عليك أن تنصاع لرغبة والدى ولا تذهب إليه مـرة أخـرى، أرجـوك لا تثر المشكلات.
تظاهرت أمامهم بأني لم أعد أهتم بعم سلامة، وفعلًا انقطعت عن زيارته، ولكني أجلت الموضوع مؤقتًا وقررت أن أسأل عم سلامة نفسه عن سـبب قطيعـة أبي لـه في أقرب فرصة تجمعني به، انكببت على كتبي ولم أركـز في أي شيء إلا مـذاكرتي، لم يفسـد تركـيزي إلا نفس الحلم الـذي راودني أكـثر من مـرة ويـترك شـيئًا من الخـوف داخلي.
لم يقطـع عزلـتي إلا صـديق الطفولـة ياسـين الـذي تربيت معه، وكبرنـا معـا، كـان مزاجنـا متقاربًـا في أشـياء عديدة لكنه يتميز عني بجرأتـه وانفتاحـه على العـالم، هـو الصديق الوحيد بالنسبة لي وأنا مجرد صديق من أصدقائه الكثيرين، لكن كان يقول دائمـا إنـه يفضـل الجلـوس معي عن الجميع، بالطبع قصصت عليـه الحلم ومقـابلتي لحـنين وذهابي لعم سلامة؛ لا أسـتطيع أن أخفي عنـه شـيئًا، كنت أجـد فيـه الأخ والصـديق وأبـوح لـه بمـا لا أسـتطيع قولـه لشيماء، لا أنكر أن روحي تشرق عندما أقابله وأحزن جـدًّا عندما يبتعد، هو الشخص الذي لا أخجل من الحـديث معـه في أي شيء يجول في خاطري، ما أجمل أن تجـد إنسـانًا تسترسل معه في الحديث دون تفكير أو حذر، وتكون في مأمن من ردة فعله.

الفصل الثامن

صدفة..

انشغلت في الامتحانات وكل شيء سار على ما يـرام، أعتقـد أني أبليت بلاءً حسـن ولم يتبـقَ إلا اليـوم وأنتهي منها، لم أوفق في رؤية حـنين في الأيـام السـابقة وإن لم أرها اليـوم سـينتهي كـل شـيء، وهـل كـان هنـاك شيء لينتهي؟ كان مجرد موقف عـابر، ومن المؤكـد أنهـا نسيت ما حدث حتى وإن رأتني فاحتمال كبير ألا تتذكرني، ولكن كيـف تنسـاني وأنـا الـذي أعيش على ذكـرى لقائنـا الوحيد ولا أتمنى أن يكون الأخير، دارت كل هذه الأسـئلة في خـاطري وأنـا في طـريقي إلى الجامعـة، حـاولت أن أتناسى كل شيء حتى أنتهي من الامتحان، وعند خـروجي وجدتها بعينيها الزرقـاوين اللـتين تـذكراني بـالبحر وصـفاء السماء. شعرت أنهـا أجمـل من المـرة السـابقة، وجـدتها تبتسـم لي من بعيـد هـل حقـا تبتسـم لي؟ هـل مـازالت تتذكرني؟ هـل هي حـنين فعلا أم أن خيـالي يصـور لي مـا أحلم بـه؟ تقـدمت في اتجاههـا ووقفت أمامهـا لأجـدها بابتسامتها الهادئة تناديني:

- كيف حالك يا عمر؟

_ أنا الحمد لله بخير، كيف حالك أنتِ؟

- الحمد لله، كيف كان الامتحان؟

_ سأتخطاه بنجاح إن شاء الله، وأنتِ؟

- متفائلة جدًّا، إن شاء الله سأتخطاه بتقديرٍ مرتفع.

_ افتقدتك.

_ ماذا؟

_ أعتـذر عن مـا قلت، أظن أني أخطـأت، أقصـد أني حقًّا افتقدتك.

- أشكرك.

ردت في خجل.

_ ما رأيك لو جلسنا قليلا؟
قلتها مترددًا.
_ أعتذر إليك، يجب أن أذهب.
_ لن أؤخرك كثيرًا، لكني أريد أن أتحدث معكِ.
- حسنًا، سأبقي لبعض الوقت.
بعد إلحاح شديد مني ورفض متواصل منها، أقنعتها أن نجلس خارج الجامعة، توجهنا إلى تمثال السلسة بأشرعته الثلاثة وجلسنا متجاورين، نتنقل من موضوع إلى آخر في سعادة كبيرة وشغف بالكلام لم أرني عشته قبل ذلك، حكت لي عن حياتها وأحلامها وأشياء كثيرة لم أذكرها حينها لانشغالي بمشاهدتها وهي تتحدث. أظهرتُ لها سعادتي بلقائها مرة أخرى وتفكيري المتواصل بها، وصارحتها بأنني أتمنى أن لا ينتهي اللقاء بيننا وشعرت أنها تبادلني نفس الأمنية، لكنها بالطبع النسائي الأصيل لم ولن تظهر ما يدور في مكنونها. ثم هبت واقفة:
_ يجب أن أذهب الآن.
_ هلَّا بقيتِ بعض الوقت؟
_ لن أستطيع، يجب أن أعود للمنزل..
ودَّعتها في حزن، لكن هوَّنت على نفسي باتفاقنا على اللقاء مرة أخرى في نفس المكان الأسبوع القادم.
عدت إلى البيت بأحاسيس غريبة جدًّا تتضارب كالأمواج في قلبي، لم أتعجب مما يحدث لي أو ما أشعر به؛ لأنها أول مرة أنتصر فيها على خجلي وأجلس مع فتاة لمدة طويلة نسبيًّا بالنسبة لي، لكن الغريب في الأمر وأكثر ما شغلني هو انجذاب حنين لي وشعوري برغبتها في الاقتراب مني أكثر، أنا أشفق على نفسي من الاندفاع في مشاعري لأنها أول تجربة، ومن الطبيعي أن يحدث ذلك، وكطفل صغير لا أشعر بالفرح وحيدًا بحثت عمن يشاركني فرحتي فتوجهت إلى شيماء وقصصت عليها كل ما حدث، فتعجبت من حماسي لحنين وأنا لم أرها إلا

مرتين ولم تقسُ عليّ بتنبيهي بأن ما حدث لا يعني شيئًا، وأوصتني بأن أتريث وألا أتعجل في الحكم على الأمور، ووعدتها بأن أحكي لها تفاصيل اللقاء القادم، لكن بعد أن وعدتني أن يبقى الموضوع سرًّا بيننا، وهذا ما فعلته أيضا مع صديقي ياسين الذي يكبرني بأربعة أعوام بخبرته في الجنس الناعم، وشدّد عليّ أن أحاول أن أمسك يدها في المرة القادمة فياسين يرى أن الوصول لقلب المرأة ما هو إلا وسيلة للوصول إلي جسدها، وقدَّم عرضه باستضافتي أنا وحنين في الكافيتريا التي يعمل بها، ولكني لم أضع معظم كلامه في الاعتبار واكتفيت بما يتناسب مع تفكيري وشخصيتي فقط. لا أعلم إن كان حديثه عن النساء صوابًا أم خطأ أفتقد الخبرة لأحكم على ذلك، هو له تجارب كثيرة فعنده مقومات لجذب الفتيات بعينيه الخضراوين وقامته فوق المتوسطة وقوامه الرياضي ووسامته، وحفاظه على حُسن مظهره، وكثرة مزاحه، كان مهيئًا لإقامة العلاقات النسائية وتقبل النساء له، وهذا كان يجعلني أتساءل؛ هل ملامح الإنسان تفرض عليه أسلوب حياة بعينه؟ هل الجميل تصبح حياته جميلة والقبيح سيعيش حياة مثل وجهه؟ مع أني لا أري أي إنسان قبيحًا، كل شخص يحمل جمالًا من نوع خاص حتى وإن غاب من ملامحه، فأكيد أنه سيظهر في شيء آخر؛ الله جميل يحب الجمال، والجميل لا يخلق إلا الجميل. ولكن ليست كل العيون تستطيع رؤية الجمال الإنساني، وهناك جمال لا يُرى إلا بالقلوب فقط.

ياسين كثير العلاقات النسائية فعلا ويفخر بذلك ولكنه لا يلتزم بوعوده مع الفتيات ويهجرهن سريعًا ودائمًا ما كنت أواجهه بذلك، فكان يسخر مني ويتهمني بالتعقيدِ وأني إن بقيت على هذا الحال فلن أجد من تتقبلني، كان حديثه يجعلني أشعر بأن هناك شيئًا ينقصني وأن عليَّ أن أغير من نفسي ولكن الآن حنين تتقبلني، هل بعد فترة

ستمل مني وتتركني عندما تكتشف هدوئي الشـديد وقلـة مزاحي وتعقيدي، أنا لا أعرف ما معنى كلمة معقد.
يعجبني في صداقتي مع ياسين أننا ينتقد أحدنا الآخــر دون أي مجاملات حتى لا نرتكب أي حماقـات ننـدم عليهـا وكنَّا نتقبل ذلك بصدر رحب، فـإذا جاملـك صـديقك في الخطـأ وبخــل عليــك بالنصـيحة فعليــك إعــادة النظــر في هــذه الصداقة.

الفصل التاسع

عرافة..

مـرت إجـازة منتصـف العـام الدراسـي عاديـة، ربمـا أقضي معظم يومي نائمًا بالنهار ساهرًا بالليل متحديًّا سُنة الحياة، أيام قليلة كنت أستيقظ مبكرًا، ومبكـرًا عنـدي هـو بعد صـلاة الظهـر مثـل اليـوم الـذي جـاء فيـه ياسـين إلى البيت وجلس عندي فترة طويلة وقبل ذهابـه أخـبرني أنـه سينتظرني في منزله في المسـاء لقضـاء السـهرة عنـده، وبالفعل ذهبت إليه ولكني وجـدت عنـده بعض أقاربـه من الريف حضروا لزيارة والدتـه المريضـة حـاولت أن أعتـذر إلى ياسين وأنصرف، لكنه رفض وصـمم على استضـافتي ودخلنا إلى غرفته.

_ لماذا لم تخبرني بوجود أقاربك؟

_ إن أخبرتك لن تأتي، أنا أعلم أنك تخجل من الغرباء ومادمت تعلم ذلك، لماذا دعوتني لزيارتك؟

- ستعرف كل شيء الآن، هل انتظرت قليلًا؟

خرج ياسين وتركني دقائق في غرفته، منزله يشبه منزلنـا ومـنزل جيراننـا وكثـيرًا من الـبيوت المصـرية كلهـا يشـبه بعضها في المضمون حتى لو اختلف شكلها وأثاثها حسـب الحالة المادية، غرفته تختلـف عن غرفـتي بجـدرانها الـتي تحتلها صور لممثلات ومغنيات وعارضات أزيـاء ومطـربين وغيرهم، لا أعلم ما سر هذه العادة عند بعض الناس؟ هـل يحب الإنسـان أن يـرى أفكـاره واهتماماتـه ماثلـة أمـام عينيه؟ أم هو نوع من فرض أفكار معينـة على النفس أم حب لأصـحاب هـذه الصـور؟ في الحقيقـة لا أعلم لأني لم أجرب هذه العادة وجدران غرفتي تقف عاريـة أمـامي من

أي صور أو براويز دون خجل ولم تطالبني يومًا أن أستر عورتها كما تطلب هذه الصور الآن.

فتح ياسين الباب ولكن كان هناك من يرافقه، عدلت من جلستي واحمر وجهي وزاد توتري عندما شاهدتها، فتاة عشرينية العمر ذات قوام مثير، عيناها بلون العسل الصافي حالمة.. بأنفٍ كاد أن يكون طويلًا، لكن تختفي هذه الملاحظة مع اكتمال حسنها بشفتين ورديتين ووجه خمري في لونه وتأثيره الذي رفع درجة حرارتي فشعرت بالحر رغم اعتدال الطقس في الغرفة، نظرت إلى ياسين نظرة استغراب وتوبيخ، فوجدته يقهقه ويقول :

- ألم أخبركِ أن صاحبنا خجول؟

_ كيف حالك يا عمر؟

بابتسامة عذبة قالتها.

بصوت لم أكد أسمعه خاطبتها:

_ الحمد لله، إني بخير.

_ هذه هاجر يا عمر من أقاربي، وقد حدثتها عن حلمك الغريب وطلبت مني أن تأتي وتحكيه لها بنفسك لتفسره لك.

كنت قد أخبرت ياسين عن الحلم وقال لي إن له قريبة تستطيع تفسير حلمي بكل سهولة وأكد أنها على صلة بالجان أو ما شابه ذلك، وكنت أتخيلها كما عهدنا في الأفلام؛ عجوزًا شمطاء لا تخفي في فمها الصغير إلا سِنة واحدة ويتدلى قرط من أنفها، يزين الوشم كفيها وذقنها وعينيها، تنظر بريبة إلى كل ما حولها وتتكلم بألفاظ مبهمة ولغات غير مفهومة ولكني لم أتوقع أن توجد عرافة بهذه المواصفات التي أراها أمامي الآن.

نادتني في ود:

_ ماذا هناك يا عمر؟ قص عليَّ كل شيء.

_ أنا بخير، حلم غريب لا أكثر.

_ وليكن، هلّا قصصـــت عليّ حلمـــك الآن؟ وســـأحاول تفسيره لك إن شاء الله.
جلسـت على الكرسـي الـذي قرّبـه ياسـين لهـا بمواجهـة الكرسي الذي أجلس عليه، قالت هذا الكلام بنـبرة حنونـة وابتسامة ساحرة ونظرة عينيها جعلتني في جلسـة تنـويم مغناطيسي وشعرت برغبتي أن أحكي لهـا عن كـل شـيء دون تردد أو تفكير.
اتركنا بمفردنا يا ياسـين، خـرج ياسـين من الغرفـة تنفيـذًا لرغبتهـا وربَّت على كتفي قبـل أن يغلـق البـاب وينصـرف ونظرت لي بتمعن.
تستطيع الأنثى فحصـك من نظـرة عين، تسـتطيع صـهرك وصـبك وتشـكيلك في قـالب جديـد في جلسـة واحـدة، خطرت إليّ هذه الأفكار، ثم انتبهت لصوتها تخاطبني:
_ أنا لست كما تظنني دجالة أو مشعوذة، ولكن سـأعترف لك بأن هناك جنًّا يصاحبني منذ الصغر، ولكنه جن صـالح لا يؤذي، ثق بي يا عمـر واحـكِ لي كـل شـيء ولا تشـك في أمري.
لم أعلق على كلامها سوى بنظرات متقطعة، ثم قلت:
- أفهم من ذلك أنك قادرة على تفسير حلمي؟
قالت بثق:
_ إن شاء الله قادرة.
حكيتُ لها عن الحلم مع تأكيدي على تكرار رؤيته والخوف الذي ينتابني بمجرد تذكره.
أغمضت عينيهـا لفـترة، شـغلني التأمـل في ملامحهـا عن الرعب الذي كان سيحتلني لـو فكـرت في مـا تفعـل.
كنا نجلس متباعدين في أول الأمر ومع مرور الوقت بدأت أقترب منها أكثر فـأكثر وارتيـاحي إليهـا يزيـد مـع الـوقت، رفعت الستار عن نظرة جادة قائلة:
_ لا بد أن تثق أولا في كل كلمة سـأقولها لـك، ليس كـل الجن مؤذيًـا كمـا يظن النـاس، هنـاك منهم من يريـد

إسعادنا ويريد أن يكون قريبًا منا، ما فهمته من حلمـك أن هناك جنًا يريد أن يصاحبك في حياتك ويرجو ذلـك ويتمـنى أن توافق، هو مستعد أن يكون خادمك وينفـذ لـك كـل مـا تطلب ويعطيك سره وكنوزه!
صحت منفعلا:
_ ما هذا التخريف؟!
_ قلت لك يجب أن تثـق في حـديثي، ذلـك الجـان يسـمى المغربي ويعرض عليك خدمته.
_ ماذا لو رفضت؟
_ سيستمر في زيارتك في أحلامك حتى توافق.
_ وإن أصررتُ على الرفض؟
_ لا أعلم، ولكـني لا أظن أنــه سـيحاول أن يؤذيـك؛ لأنــه يحبك، ولكن لماذا ترفض طلبه؟
- لأن هذا كُفر.
ردت منفعلة:
_ لا تقل كفرًا.
انتابني بعض الخوف من تغير لـون وجههـا وتسـاقط بعض الدموع من عينيها.
_ لا تغضبي مني، ولكن من يربـط مصـيره بـالجن ويعتمـد عليــه يكــون كـافرًا، وعليـكِ أنتِ أيضًـا التخلص من الجن الذي يصاحبك.
_ لا أستطيع، الأمر أكبر مما تتخيل، هذا قدري.
- لا أدرى ماذا أقول لك، ولكني أراكِ طيبة القلب وبالفعل ارتاحت لكِ روحي.
_ وأنت أيضًا يا عمر طيب القلب، ولكنك قليل الحظ.
شعرت مع هاجر بمتعة التحدث مع شـخص ذكي لا تحتـاج إلى شرح كل كبيرة وصغيرة حتى يفهم ما تريد قوله.
سألتها عن البنت التي رأيتها في الحلم.
_ هل قابلتها؟
- نعم.

_ ما اسمها؟
- حنين.
_ الدم واحد والقرب حرام.
- لا أفهم!
_ ابقَ بجانبها.
- ماذا عن الشجرة؟
_ الجذر واحد والفروع تضل.
- ماذا يعني هذا؟
_ لن أستطيع أخبارك بأكثر مما قلت، والآن لا تحاول رؤيتي مرة أخرى، عليك أن تنسى هذا اللقاء وتنساني إلى الأبد، وسل الله لي أن أنساك، لا تفكر في رؤيتي يا عمر مهما اشتقت لي، حتى إن طلبت أنا رؤيتك لا تأتِ، لا تدع أرواحنا تفرض علينا إرادتها.

قالت هذه الكلمات والدموع تسقط من عينيها دافئة على يدي التي كانت تحضنها بيديها، ثم شعرت بهزة عنيفة تجتاحها وتشنجات قوية على وجهها، وزاد ضغط يدها على يدي، لم أعرف ماذا أفعل وتمنيت إن لم آتِ إلى هنا ولم أعرفها. ولم ينقذنا من هذا الموقف إلا دخول ياسين الغرفة وطمأنني أنها حالة عادية عندها ولم يحدث أي مكروه، فقط تحتاج للنوم، فاستأذنت منه للانصراف في هدوء بعد أنا نامت في سريرها.

لم أستطع فهم كل ما قالته، ولكني وجدت نفسي في شوق إليها، غلب شوقي لحنين في بعض الأوقات، وفي اليوم التالي أخبرني ياسين أنها تريد رؤيتي ولكني رفضت كما وعدتها ألا أعود إليها حتى لو طلبت مني ذلك وعادت من حيث أتت بعد ثلاثة أيام، نازعتني نفسي شوقًا إليها فترة وحدث ما أخبرتني به ونسيتها تمامًا بصورة غريبة.

زاد قلقي من تداعيات هذا الحلم، وبدأ يساورني الشك في حدوث أي مكروه في القريب العاجل، لكن القريب

العاجل الذي أنتظره هو غدًا لقاء حنين، ما أجمل الشـغف الـذي عرفتـه منـذ قابلتهـا، إنـه التعلـق الـذي كنت أتجنبـه بشتى السبل، هناك أمور مهما حاولت تداركها لا تسـتطيع الإفلات منها أبد الدهر، مثل الحب أو مثل المغـربي الـذي يحاصرني في أحلامي ولا أدرى إلى متى سيظل يحاصرني حضوره.

الفصل العاشر

حنين وسلامة..

توالت لقاءاتي بانتظام مع حنين طيلة إجازة نصف العام، كنا نلتقي كل يوم ثلاثاء الساعة الواحدة ظهرًا عند تمثال السلسلة، ومع بداية الدراسة أصبحت أراها يومين في الأسبوع حدثتني عن أشياء كثيرة عن شخصيتها، فكونت فكرة جيدة عنها حيث وجدتها فتاة في مقتبل العمر رائعة الحسن، جميلة القوام، متوسطة الطول، لديها غمازتان تظهران عندما تضحك تتميز في أخلاقها ورقة كلامها وابتسامتها الودود، تعيش حياة مستقرة مع أسرة تغمرها بكل الرعاية والحب، تستمتع بكل لحظة في حياتها لا يؤرقها إلا كثرة المتقدمين لطلب يدها مع رفضها التام للزواج حتى تنهي دراستها، هذا ما كانت تردده دائمًا عندما تسأل عن رفضها للارتباط، ولكن السبب الحقيقي كان عدم اقتناعها بأي شخص من المتقدمين للزواج بها، ربما احتفظت بصورة فارس أحلامها الذي لم تضع له مواصفات معينة هي فقط تمنت من يجبرها على حبه دون أدنى محاولة منه أرادت أن تحبه لأنها تحبه، لا لأنه شخص يستحق الحب.. حنين فتاة عادية بسيطة جميلة، لكنها تتمسك بحلمها وترفض خوض أي تجربة مهما كانت المغريات، لا تتعجل القدر بل بيقين تحسد عليه تعلم أن هناك في الجانب الآخر من هذه الدنيا، مَن يبحث عنها ويتمناها في نفسه كل يوم ويراها في أحلامه!

ربما كان قدرها ينتظرها في صورة جسد نحيل ووجه يخفي دواخله، ذلك الشاب الذي قابلته في الجامعة ولا تستطيع أن تفسر شدة انجذابها إليه، وكيف سمحت لنفسها بقضاء بعض الدقائق معه، رغبة مكبوتة تولدت لديها حين وقع نظرها عليه عندما دخل باب الجامعة

وأخذت تراقبه حتى قاده القدر إليها ورتب بإتقان صدفة اللقاء وتوترها الذي جعلها تخطيء في نقل جدولها، عادت إلى منزلها بوجه غير الذي ذهبت به، تبدل الوجه الصافي المسترخي الملامح ليحل محله وجه مضطرب تملؤه الحيرة والاشتياق لهذا الدخيل على حياتها وترجو القدر أن يرتب لقاءً مرة أخرى لعلها تجد تفسيرًا لسر هذا الانجذاب لشخص لم يكن ملفتًا للنظر حتى لو اجتهد في ذلك، لا تجد تفسيرًا لما هي عليه، وربما وجدت متعة في عدم تفسيره!
هذا ما استنتجته من أحاديثي الطويلة مع حنين عن نفسها وما قصته عن شعورها عندما رأتني أول مرة، ربما أخفيت سعادتي عندما أخبرتني بذلك، وعرفت أيضا أنها يتيمة الأب وأن زوج أمها تولى رعايتها، ولم يشعرها بيتمها في يوم من الأيام.
لاحظ زميلي كمال أني انتظمت في الحضور للجامعة بالرغم من أني لم أدخل أي محاضرة وبسهولة أدرك صداقتي لحنين ولمح لي بذلك ولم أعارضه، بعد إلحاح شديد أعطيت حنين رقم هاتفي المنزلي لكي تطمئن عليّ من وقت لآخر.
لم يكن عندي ما أحكيه لحنين عن نفسي، كل حديثي كان يدور عن الأشخاص الذين أعيش معهم؛ أختي، أمي، أبي، ياسين. أنا لا أملك ما يستحق الذكر، وقررت سابقًا ألا أخبر حنين بالحلم ولقاء هاجر، لا أريد أن تخشى مني أو مما ينتظرني، عشنا معًا لحظات جميلة، كانت حنين تحمل جهازًا لتشغيل الأغاني "الوكمان" تمنيت كثيرًا أن أمتلك واحدًا لكني لم أفكر يومًا في شرائه، لماذا نتمنى فقط الأشياء ولا نسعى لتحقيقها؟ رغبت حنين أن تشاركني أغانيها فأعطتني سماعة واحتفظت بالأخرى وأصبحنا متقاربين. كان يومًا مشمسًا ودافئًا في كل شيء، حتى صوت المطرب عمرو دياب كان دافئًا،

أخبرتني حنين بأنه ألبوم جديد له وأذكر أن ياسين اشترى بوستر إعلانيًا يحمل صورة المطرب واسم الألبوم هو "علم قلبي الغرام "، وهذا كان حالي مع حنين، من فينا سيعلم الثاني الغرام والحب والعشق، وهل الحب يحتاج إلى تعليم وتوجيهات ليكون حبًا؟ لا أعتقد ذلك؛ فالحب هو أكبر معلم في الحياة يعلمنا التضحية وإنكار الذات وتمني الخير للغير والخوف عليه، لاحظت حنين عند دندنتي مع الأغاني عذوبة صوتي وأصبحت تطلب مني في كل لقاء أن أغني لها، وكانت تستمتع بذلك وأنا كنت سعيدًا جدًّا بأنها وجدت لديّ شيئًا ينال إعجابها.
كرر ياسين دعوته لي بأن أصطحب حنين ونقوم بزيارته في محل عمله، حددت اليوم بعد أن أقنعت حنين برغبتي في تقديمها إلى ياسين وتقديم ياسين لها، وذهبنا في اليوم المحدد، وكالعادة قام صديقي بواجب الضيافة وزيادة ومهد لي جلسة جميلة مع حنين التي اطمأنت له بعد تأكيدي على حبي له وثقتي الكبيرة به.
اقتربت من حنين في فترة قصيرة لا تتعدى الشهرين، جمعتنا مقابلات كثيرة ومكالمات تليفونية طويلة شاهدة عليها شيماء، وأمي تراقب ما يحدث من بعيد ولم تفاتحني في الأمر، انجذبنا لبعضنا البعض كأننا متواعدان على اللقاء منذ عصور، أصبحت تشغل جزءًا كبيرًا من حياتي ومن تفكيري، شعرت معها بجمال الحياة.
ولكن كانت هناك هذه الغُصة التي تنتابني من وقت لآخر عندما يراودني الحلم المزعج وأشعر أن هناك صلة بينه وبين حنين.
كانت الغصة الأخرى وهي مرض علاء، علاء طالب معي في الجامعة في نفس الفرقة، نبهني كمال ذات مرة أن علاء يطارد حنين من فترة وهي لا تتجاوب معه، وأن قربي من حنين أزعجه جدًّا ، وبالفعل ظهر ذلك جليًّا في نظراته الحادة ونفوره مني، استمر علاء في مسار حقده

حتى وصل إلى محطة الكره الشديد، وصل به إلى الحد الذي جعله ينتظر أي فرصة ليتشاجر معي، حتى جاءته الفرصة وهاجمني متعللًا بأني ذكرته بالسوء في غيابه وهذا طبعًا لم يحدث، كانت مشاجرة كبيرة أوجعني فيها ضربًا بجسده الضخم وقوته المفرطة. شعرت بالإهانة حينها وخاصة أن حنين شاهدت كل ما حدث، ذهبت إلى ياسين في محل عمله لأقص عليه الحادثة ولكني لم أجده، عدت إلى البيت مهزومًا مقهورًا، كذبت على أسرتي وأخبرتهم أني تعرضت لحادثة سير، ذهبت إلى عم سلامة منهارًا وحكيت له ما حدث، فغضب إلى درجة لم أشاهدها عليه من قبل، ألح عليَّ في معرفة اسمه حتى أخبرته دون أن يذكر لي أهمية ذلك، بعد يومين أخبرني كمال أن علاء أصابه مرض غريب ويرقد طريح الفراش، وبعد أسبوع أصبح في عداد الموتى، هاجس مريب تملكني أن يكون عم سلامة له يد في ذلك ولكني استبعدت الفكرة.

أما الغُصة الثالثة فكانت يوم ظهور نتيجة الفصل الدراسي الأول حدثت مفاجأة ما كنت أتوقعها، تقابلت مع حنين وتوجهنا لمعرفة النتيجة، أخبرتني لأول مرة باسمها الثلاثي حنين سلامة الرفاعي، بمجرد سماعي الاسم ضربتني عاصفة شديدة من التفكير؛ مستحيل أن يكون ما توقعت ربما تشابه أسماء أو أي شيء، غير أن تكون حنين ابنة عم سلامة الصعيدي، ولكن كيف سيكون الوضع إن حدث ما توجست منه؟

الفصل الحادي عشر

حكايات سلامة..

قررت أن أذهب لزيارة عم سلامة في بيته لأول مرة في حياتي، وفي وقت الأصيل في يوم من أيام شهر مارس، ذهبت إليه واجتزت الطريق الترابي المؤدي إلى البيت ثم وقفت أمامه أتأمله بعين فاحصة، فوجدته مكانًا يغلفه الغموض. وقفت مترددًا أمام الباب الخشبي العتيق أنظر له وينظر إليّ وبعد فترة شعرت بضجره مني وأنه سيصيح في وجهي بالانصراف، فتشجعت وتقدمت أربِّت على وجهه برفق ليهدأ، فسمعت صوته يأتي من الداخل بنبرة تجبر من يطرق بابه على الفرار وعدم التفكير بالعودة، وهذا ما فكرت فيه حينها، لكن لا أعرف كيف نطقت:

_ أنا عمر .

ساد الصمت من جديد وارتبت في نفسي أني سمعت صوته منذ قليل، ولكن قطع شكي صوت خطوات متثاقلة داخل البيت تقترب من الباب وصوت مزلاج يسحب والباب يفتح للداخل لأجده أمامي.

_ كيف حالك يا عمر؟

_ الحمد لله، هل تسمح لي بالدخول؟

نظر إليّ في حيرة من أمره ثم قال:

_ تعال يا ولدي، تفضل.

دخلت البيت في حذر شديد لأجد نفسي في غرفة واسعة قليلة الأثاث، يستعملها عم سلامة لاستقبال لضيوفه الذي أعتبر أنا أولهم، ومطبخ يضم وابورًا قديمًا بجانبه قالبان من الحجر يرقد بينهما رماد الحطب، وبعض الأواني القليلة. وفي الزاوية مكان مغلق بستارة ثقيلة توحي

بدورة مياه بجانبها صناديق بلاستيكية بها كثير من زجاجات الخمر الفارغة وفأس بحالة جيدة.
تقـدمت على أرضـية رمليـة، لاحظت أن هنـاك بابًـا آخـر لغرفة نومه، وعنـدما رفعت نظـري لأعلى وجـدت سـقف الـبيت كمـا رأيتـه من الخـارج من الصـفيح ولا يوجـد بـه مصـباح إضـاءة. لم يقتنـع عم سـلامة بعـدُ بوجـود اخـتراع اسمه الكهرباء.
_ اجلس يا عمر.
أشار إلى الكنبة؛ فجلست.
_ أين كنت، لم تزورني من مدة طويلة؟
_ أعذرني يا عم سلامة، كنت منشغل باختبارات الجامعة .
_ وفقك الله يا بني.
_ سأعد لك الشاى؟
_ لا اريد أشكرك .
كانت حركاته بطيئة جدا علي غير عادته فسألته:
هل أنت مريض؟
_ لا لست مريضًا، إنها تراكمات السنين يا ولـدي، يبـدو أن نهاية الطريق قد اقتربت.
جلس بجانبي وشعرت بأنه يلقي تعب السنين التي عاشها وشـعرت بحـيرة في عينيـه لا تناسـب مـا يثـار عنـه من أحاديث.
نظر إليّ بعين متسائلة:
_ ما الذي أتي بك الآن يا عمر؟
_ جئت أطمأن عليك.
_ إنك لا تجيد الكذب يا بني.
ارتبكت في جلستي وحاولت إخفاء توتري.
_ سأغادر لو أزعجتك زيارتي.
قلت معاتبًا.
أخـذ يعبث بفتلـة خيـط هاربـة من جلبابـه ثم جـذبها بقـوة فقطعها وتقاطعت في نفس اللحظة نظراتنا فقال:

_ تريد أن تعرف ما سبب قطيعتي مع والدك، سأخبرك.
لو أن شخصًا آخر غير عم سلامة كنت سأتعجب، لكن معه التعجب شيء مفروض عليك.
_نعم، هذا ما جئت من أجله. من حقي أن أعرف ما دار بينكما ولماذا يكرهك والدي؟
قلت منفعلًا بصراحتي المعتادة التي تحول الكلمات إلى رصاص أصيب به الهدف، لكن تسقط علاقتي مع الناس ضحية لاندفاعي.
_ ولماذا لم تسأل والدك؟
رد بهدوء.
_ سألته فلم يجيبني وطلب مني عدم تكرار السؤال فأطعت أمره مستسلمًا لرغبته .
_ ولماذا تريد أن تعرف؟
_ حتى أفهم.
_الفهم داء.
_وعدم الفهم ليس دواء
_ أخشى أن تكرهني بعد أن تعرف حقيقة الأمر.
_ولماذا أكرهك؟
_ربما ستعرف الإجابة لو عرفت لماذا تحبني؟
خابت محاولاتي مع عم سلامة في الكشف عن سر عداء أبي له، وعندما لاحظ ضجري وشاهد عدم الرضا على وجهي قام ودخل غرفة نومه وجاء بصندوق خشبي متوسط الحجم، عليه نقوش لم أستطع أن أفسرها. وكانت هناك بعض الكتب القديمة يبدو عليها الهيبة والعظمة، فسألته
مستوضحاً:
_ أنت تجيد القراءة والكتابة؟
_ وأتحدث الإنجليزية والفرنسية أيضا.
_ أين تعلمت كل هذا؟ ومتي؟
_ستُعلمك الحياة الكثير يا ولدي.

لكن الـذي كـان لا يحتـاج إلى تفسـير وظهـر جليًّا أمـامي مرسومًا على الصندوق هي النجمـة الـتي أرسـمها والـتي رأيتهــا على عبــاءة المغــربي في أحلامي. حــاولت دون جدوى إجبار ملامحي على التماسـك ويـدي عن الارتعـاش وسألته:

_ ما هذه النجمة؟

_ أنت تعلم أكثر مني عنها يا عمر؟

_ وكيف ليّ أن أعرف ؟

_ أنت تعرفها جيدا وهي أيضا تعرفك جيدا.

بات الأمر واضحًا، سلامة يعلم مـا يـدور معي، فـزدت في الأمور وضوحًا وسألته:

_ هل أنت المغربي؟

ضحك سلامة مقهقهًا لدرجة استفزتني أكثر ممـا أرعبتـني وقال:

_ أنا خادم المغربي يا عمر.

أنتفض جسدي بعد هذا الأعتراف فتمالكت نفسي وقلت:

_ من يكون المغربي؟

_ سيدى المغربي هو حارس الكنز.

بصوت منخفض.

_أىُ كنز ؟

_ كنز الشجرة العتيقة.

_ وما صلتي بهذا الموضوع؟

لمحت حينهـا طيـف عبـاءة مثـل الـتي رأيتهـا في أحلامي تتحرك في غرفة النوم بعد أن ترك سلامة بابها مفتوحًا.

_ أختارك المغربي لتخدمه من بعدي.

_ أنت مجنون أنت وسيدك هذا.

سمعت أصوات أقدام تركض على سطح البيت وتطــايرت خفافيش تسكن داخل المنزل أمام وجهي.

_ الأختيار رفاهية أنت لا تملكها الآن.

ويده الثقيلة تضغط على كتفي بنظرة مهددة.

_ لن أوافق، ولماذا أنا بالتحديد؟
قلت مستفهمًا.
_ أنا الذي أخترتك لهذه المهمة، حتى تحصل علي الكنز ـ
_كان أعطاك إياه، توقف عن هذا اللغو.
رد بصوتٍ مكسور:
_ أنا أقترفت كثيرا من الذنوب ولم أستحق الكنز
_ وأنا لا أريد كنوزا، أبحث عن شخص أخر يحل محلك.
_ليس أمامى غيرك، أو حنين أبنتي.
وغمز بعينه اليسرى في خبث.
صمتُ ولم أنطق، ثم حاولت تمالك نفسي ثم قلت:
_لا دخل لىّ بهذا الموضوع ولن أكون خادمًا لأحد.
استشاط سلامة غضبًا، وشعرت بأنفاس حارة تقترب من أذني وسلامة ينظر مشدوهًا إلى شيء لا أراه، وشعرت أن جسدي كله ينتفض بقوة، ثم نطق سلامة مهددًا:
_ إني أحذرك مما قد يحدث لو صممت علي الرفض.
قمت من مكاني وأسرعت إلى باب البيت الذي رفض مزلاجه أن يتحرك رغم محاولاتي لفتحه، ثم قام سلامة وفتحه بسهولة ثم ودعني وقال:
_ سأنتظر زيارتك القادمة لتحمل عني العهد.
دارت بي الظنون والمخاوف، وشعرت أن السماء تقترب من الأرض وتدك كل شيء بينهما، كما توقعت من قبل، حنين ابنة سلامة لم تكن صدفة ولم يكن تشابه أسماء صدقت توقعاتي. هل أخبر حنين بحقيقة الأمر؟ هل آتي بها إلى والدها؟ لا أعلم ماذا أفعل الآن، وإلى أي شيء ستصير الأمور، سلامة أصبح مخيفًا كما يقول الناس عنه، ظن والدي كان في محله؛ أنه لا يأتي من ورائه إلا الأذى، لكن لماذا ما زلت أرى فيه شيئًا يحبني؟
خرجت من عند سلامة تتخبط خطواتي، إلى أين أذهب؟ و متى سأعود إليه؟ وهل سأعود وحيدًا؟ أم سأصحب حنين معي، ولماذا أصحبها؟ يجب أن تبقى بعيدًا عن كل هذا،

حنين لا تستحق أبًا مثل سلامة، الأفضل أن يظل متوفى كما تعتقد هي، هل المغربي هو من رتب كل هذا لشيء في نفسه؟ أي عهد هذا الذي يريد أن يورطني فيه؟ رأسي يعج بالأفكار وقدمي ما عادت تحملني. أشعر أني أحمل ثقل الجبال على كتفي، هل هذه هي الحياة التي كنت أتمنى أن أدخل غمارها وأكون جزءًا منها؟ لم أرضَ بوحدتي وحاولت تغيير نفسي فوجدتني مطاردًا من الجن ومنبوذًا عند الإنس، أي ورطة وضعت نفسي بها، ما ذنبي الذي اقترفته لأجد نفسي داخل هذه المتاهة التي لا أجد لها نهاية؟ أنا كنت في أحسن حال قبل ذلك ولكني لم أشكر نعم الله عليّ، وتمردت على حياتي الرتيبة ومقتُّها، سامحني يارب.

الفصل الثاني عشر

عريس شيماء..

عدتُ من عِند سلامة مشتت الذهن كشجرة تعبث بها العواصف، ومع غروب الشمس وتسلل الظلام تسللت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي وندمت أني فتحت أبواب الحياة على مصاريعها، دارت في عقلي الأفكار حتى تعبت، فاستغلت فرصة نومي ورقدت ترتاح لتسترد قوتها بمجرد استيقاظي، وتنقض عليّ وتكمل افتراسها لأعصابي بأسنان باردة، ولكن خطتها باءت بالفشل بتدخل أمي في الأمر عندما ناداني صوتها بحنانها المعهود:

_ استيقظ يا عمر

جلست على طرف السرير تفوح منها رائحة طفولتي فتعجبت كيف للروائح أن تحتفظ بالذكرياتوجلست منتبهًا على سريري

_ماذا هناك يا أمي

تحدثت بنبرة متفائلة وأمل قريب التحقيق:

_سيأتي شاب ليتقدم لطلب يد أختك.

قلت متأففا:

_ سترفض مثلما رفضت قبل ذلك، اتركوها تفعل ما تريد،لا ترغموها على شيء.

فعبس وجهها، فسألتها بلطف متداركًا اندفاعي:

_ومِن طرف مَن هذه المرة؟

_ جارتنا والدة سارة.

_هذه المرة الثالثة التي تأتي بعريس لشيماء، لماذا تمد أنفها في حياتنا هكذا؟

_ وماذا فعلت؟ إنها تُحب لنا الخير، ولكنكما أنت وأختك هكذا لا تحبان أحدًا.

_ وهل مطلـق أم أرمـل يبحث عن من تـربي لـه أبنـاءه مثل من سبقوه؟
_ لا هذا ولا ذاك، هذه المرة أعـزب لم يسـبق لـه الـزواج ويعمل في الخليج .
لم أعقب على وصفها للعريس.
_ ولو تم الزواج ستسافر معه في غضون شهر.
وكادت تبكي
_ ستبكين قبل أن يأتي يا أمي؟ هل أخبرتِ شيماء؟
جذبتني من فروة شعري قائلة:
_ نعم أخبرتها وأقنعتها أن تجلس معـه وبعـدها تقـرر مـاذا تريد.
_ متى سيحضر؟
_حددوا موعدًا مع والدك بعد أسبوع من الآن إن شاء الله.
قالت متوسلة:
_ اجلس مع أختك وحاول أن تقنعهـا أكـثر بـالجلوس معـه وألا تعبس في وجهه مثلما تفعل.
_ حاضر يا أمي، سأفعل.
_ ما بك يا بني؟
_ ماذا؟
_ ملامحك تملؤها الحيرة والقلق.
_ أنا بخير يا أمي، لا تقلقي.
_ أتمنى أن أطمئن عليك وعلى شيماء.
قالتها ناظرة للسماء رافعة يديها، ثم قـامت من جلسـتها خارجة من الغرفة، فالتفتت لي قائلة:
_ سارة كانت هنا وتقرئك السلام.
_ سلمتِ يا أمي.
_ متى أرى عروسك أنت أيضًا؟
قالتها بابتسامة هادئـة خجـول، لم أسـتطع رؤيتهـا إلا وابتسمتُ ابتسامة تشبهها مهما كنت مهمومًـا، لم أسـتطع أن ألومهـا في حرصـها على زواج شـيماء، كـل أم تتمـنى

زواج ابنتها، لم تكن أسـرتي من النـوع الـذي يـزوج البنت من أجل أن يرتاح من همها كما يقول البعض؛ لأن الحقيقة الواضحة أن مشاكل البنات لا تبدأ إلا بعد الزواج.

بعد خروج أمي تذكرت حالي من فترة قبل أن تأتيني الأحلام المزعجة وتعبث الأحداث بأمواج حياتي مثل نـوات الشتاء، عندما كان كل مـا يشـغل تفكـيري أشـياء لم أكن أعلم أنهـا في منتهى البسـاطة مثـل إرضـاء أبي، نوبـات مرض أمي، وغيرتي على شيماء، كيف أهرب من وحدتي.

وتذكرت سارة ، كانت تسـكن في نفس البنايـة الـتي أعيش فيهــا، هي قــد تــوقفت دراســتها عنــد المرحلــة الإعدادية رغم تفوقها لأن والدها عم جمعة الترزي لا يـرى أي فائدة من مواصلة التعليم، وكما كان يقول (المهم أنهـا تقرأ وتكتب فقط) كان مقتنعًـا بوجهـة نظـره ولا يقبـل أي نقــاش واستســلمت والــدة ســارة للأمــر بنفس راضــية متحججة بعبارتها (البنت ليس لها إلا الـزواج) وكـأن البنت قبل الزواج ما هي إلا ضـيفة في بيت أبيهـا سـترحل إمـا عــاجلًا أو آجلا ، كــان والــدىّ ســارة متفقين في الجهــل بصورة جعلتهما يعيشان معا في تفـاهم تـام، أمـا الضـحية فكانت لا حول لها ولا قـوة، ولكنهـا كـانت راضـية بقـدرها متقبلة قرارات أسرتها دون تمرد أو نفور بلامبـالاة تحسـد عليها تجعلك تفقـد تعاطفـك معهـا وتعلمـك ألا تتـدخل في أقدار غيرك إن كانت تعجبهم حتى لا تفسد عليهم حياتهم، بفطرة طفوليـة اقـتربت من سـارة وبحكم جيرتنـا قضـينا معظم طفولتنا متلازمين وكثـيرا مـا ذاكرنـا دروسـنا معـا، ومع وصولنا المرحلة الإعدادية بدأت أمي تشدد عليّ بعدم الذهاب إلى سارة لأنها كبرت الآن وأصبحت فتـاة مـع أني لم أكبر مثلها رغم أننا في نفس السن، وشـعرت بأنهـا لم تعد طفلة وأصبح لها معاملة مختلفة، ومع لبسـها الحجـاب ونضوجها شعرت بأنها أصبحت تفوقـني بـأعوام، وبتوقفهـا عن التعليم تباعدت المسافة جـدا بيننـا ولم أعُـد أراهـا إلا

قليلًا ربما مصادفة أو عندما تأتي لتستعير شيئًا من شيماء. شعوري بها دائما كان شعور جيرة وأخوة فقط، ولم يخطر على قلبي أن يدق لها يومًا، وكيف لك أن تغير مشاعرك لتتناسب مع رغبات الآخرين؟! سارة كانت تعلم حقيقة شعوري نحوها، وربما كان شعورها لا يختلف كثيرًا عني، والأهم من ذلك والذي لا يعرفه أحد غيري من سنين أن سارة تحب ياسين، الذي انجذب لها بشدة وعاشا قصة حب يرعاها اندفاع ياسين ومسالمة سارة، لم تصارحني بالأمر يوما فهذا حديث بين السطور عليك استيعابه بنفسك، تعرضت قصتهما للفشل، بسبب ظروف ياسين المادية وعدم جاهزيته للزواج ورغبة والدة سارة المقدسة في الاطمئنان على مستقبل ابنتها بالزواج المبكر ..

الآن سارة متزوجة وأم، لكن ملامحها تعطيها عشر سنوات فوق عمرها كلوحة جميلة عُلقت على جدار متهالك، لكن نظرة الرضا مازالت موجودة في عينيها، نسيت ياسين ونسيت كل شيء، واستطاعت بمهارة تحسد عليها أن تتأقلم مع حياتها الجديدة.. وما زال ياسين عندما يتذكرها ينعى حبه الأول ويصب اللعنات على والدة سارة التي أخبرته بأن سارة ستتزوج وتنجب وهو لا يزال نائمًا على فراشه ينظر إلى سقف غرفته. وأظنها للأسف كانت صادقة.

هدنة مع الذكريات أخرجتني من واقعي المتخبط وعندما وجدت الأفكار تعصف بي من جديد غادرت سريري وتوجهت إلى شيماء وجلست معها فترة طويلة وعندما سألتني عن أحوال حنين:

_ بخير.

جاوبت مقتضبا.

_ لماذا عبس وجهك حين ذكرتها لك، هل هناك خلاف بينكما؟

_ لا ، لا شيء.

_ ماذا هناك ،اصدقني القول.
_ سأبتعد عن حنين.
_ بهذه السهولة؟ أين انجذابك لها؟ أخبرني ما تخفي في نفسك.
_ لا أعلم بالتحديد ماذا حدث، مكانتها عندي لم تتغير ولكنها لن تزيد على كونها صديقة وزميلة، هناك حاجز بيننا لا أستطيع تجاوزه.
_ هذا من جانبك، ربما تختلف مشاعرها عنك.
لم يختلف شعورها كثيرًا عما شعرت به.
_ وكيف عرفت ذلك؟
_ هل سنقضي اليوم في الكلام عن حنين؟ أخبريني ماذا انتويتِ فعله مع الشاب القادم لخطبتك؟
_ أنت حضرت من أجل هذا إذن، اذهب وطمأن والدتك بأني سأجلس معه وسأكون في غاية السعادة، لعلها تهدأ قليلًا، ولنا عودة في الحديث عن حنين.
_ أشفق على هذا الشاب
_ ماذا تقول؟
_ لا شيء، أنا ذاهب.
خرجت من غرفة شيماء مبتسمًا، تصاحبني وسادتها التي ألقتها في وجهي وهي تضحك.
فكرت في الذهاب إلى ياسين، ولكني عزفت عن الأمر وفضلت الجلوس في غرفتي، وفكرت فيما قلته لشيماء عن حنين، ربما اتخذت القرار ولم أشعر به إلا والكلام يخرج من لساني: هل سأبتعد عن حنين حقًّا؟ هل هذا هو التصرف الصحيح؟ أظنه كذلك، يجب أن أبتعد عنها لأبعدها عن مصيري الذي لا أعلم إلى أين ستكون نهايته. لا تستحق حنين أن أقحمها في هذا الأمر، ويجب أن تبتعد عن سلامة ولا تلتقي به تحت أي ظرف هذا أفضل، وهذا ما يجب عليّ فعله، يجب أن أحميها مني، وأنهي علاقتنا عند هذا الحد، وتعود من حيث أتت وتكمل حياتها في

هدوء بعيدًا عني وعن المغربي وعن سلامة وعن الشـجرة وعن كل هذه الأشياء المجهولة، فقسـوتي عليهـا خـير من صـدمتها إذا علمت مـا أخفيـه عنهـا، ومن الغـد سـأبدأ في تنفيذ قراري مهما كلفني الأمـر من كـره حـنين وازدرائهـا لي، كم كنت أتمــني أن أحكي لأمي كــل شــيء ولكــني أشفقت عليها من الخوف الـذي لن يفارقهـا إذا مـا علمت ذلك، أما شيماء فما أردت أن أزعجها بمشـكلاتي وتركتهـا لمشروع زواجهـا المنتظـر، وجـاء على خـاطري أن أحكي كل شيء لأبي، ولكـني اسـتبعدت الفكـرة بسـرعة كبـيرة دون أي أسباب.

الفصل الثالث عشر

حنين والمغربي..

منذ لقائي الأخير مع سلامة لم أعرف للراحة سبيلًا، أقضي ليلي ساهرًا، هاربًا من الأحلام، نعم كنت مرتابًا من ردة فعل المغربي على كلامي مع سلامة لأنه من المؤكد أنه كان حاضرًا معنا وسمع كل شيء، وهربت أيضا من حنين، هاتفتني أكثر من مرة فأشير لشيماء بعدم رغبتي في الرد عليها، وانقطعت أيضًا عن الذهاب إلى الجامعة، بكل قسوة بدأت أنفذ ما قررته من إبعاد حنين عني وعن حياتي، كان قلبي يتمزق من أجلها ومن اشتياقي لها، كان كل شيء بداخلي يلعنني، يلومني، يجلدني، يتوسل إليّ أن أراها أو أتحدث إليها، لكن هيهات، رغبتي في حمايتها كانت أقوى، اقتناعي بما أفعل جعلني أصمد أمام ضعف نفسي كشجرة تتحدى الريح بجذورٍ ثابتة.

قابلني ياسين بعدها في بيتي وأخبرني أن حنين زارته في الكافيتريا وسألته عني، وطلبت منه أن يخبرني برغبتها في رؤيتي. فقصصت عليه ما حدث وما قررته، فأيدني في ما أفعل رغم تعاطفه الشديد مع حنين.

استيقظت يومًا على أذان العصر بدون أي أحلام تذكر، بدأت أبدي اهتمامي بعريس شيماء وأستفسر من أمي إذا كان البيت يحتاج إلى شيء، فأخبرتني أن كل شيء على ما يرام وعليَّ فقط أن أهتم بتجهيز نفسي وأخبرتني شيماء بأن حنين اتصلت بي مرتين وشددت عليها أن تؤكد عليّ إعادة الاتصال بها، توجهت إلى الهاتف وبدأت أضغط على الأرقام لأطلب رقم حنين، ولكني تذكرت قراري بضرورة الابتعاد عنها فوضعت السماعة وأنا حانق جدًّا على نفسي وعلى كل شيء يمنعني من الاقتراب منها.

بعد صلاة العشاء كانت والدة سارة على بـاب شـقتنا تخبر أمي بـأن العـريس يتبعهـا، كنت جالسًـا أنـا وأبي في الانتظار، لنجد سيدة في عمر السـتين ترتـدي عبـاءة بنيـة مطرزة وحجابها فضفاض أسود اللون أيضـا، ينـيره وجههـا ناصـع البيـاض الـذي يـوحي بطيبـة القلب، ويتبعهـا شـاب طوله أقل من المتوسـط، نحيـف الجسـد، بشـرته قمحيـة اللون، ملامحه مهذبـة، هيئتـه تـوحي بشـخص جـاد عملي، المظهر العام يدل على شخصية محترمـة والنظـارة الـتي على عينيـه تؤكـد كلامي، تقـدمت والـدة العـريس بخطى بطيئة يتبعها ابنها خطوة بخطوة كأنها دليلـه في الطريـق، واستأذنت والدة سارة للانصراف وتحججت بقـدوم زوجهـا وانشغالها، رحبنا بهما وجلسا في غرفـة الاسـتقبال الـتي غـيرت أمي فرشـها بالكامـل وعلّقت السـتائر من أجلهم. بعد الترحيب والتعارف وتقديم العصير في كؤوس الـنيش التي كتب لها اليوم الحرية بعـد سـنوات من الأسـر داخـل الفترينة المنزلية، كانت شيماء قد أوصـت أمي بـأن تقـدم العصير قبل دخولها وعـدم إجبارهـا على الـدخول بـه. بـدأ الكلام يقل ويتسلل الصمت، أنقذ أبي الموقف وطلب من أمي أن تنـادي على شـيماء لتنضـم إلى الجلسـة، لاحظت توتر العريس وزيادة تحسسه لنظارتـه أكـثر من مـرة في الدقيقة الواحدة، دخلت شيماء مطأطأة الرأس في خجـل وتقدمت إلى والـدة العـريس الـتي ابتسـمت لهـا وجـذبتها إليها واحتضنتها وقبلتها رغم أنهـا المـرة الأولى الـتي تـرى فيهــا شــيماء! ثم جلســت شــيماء دون أن تســلم على العريس الذي زاد توتره حينها، وابتسـمت أنـا وأبي، ولكن أمي نظرت إلى شـيماء نظـرت لـوم ثم تصـنعت البسـمة ووجهت كلامها إلى أم العريس قائلة:

_ أهلا وسهلا بكم.

_ أهلا بكِ يا عزيزتي.

قال أبي بجدية:

_ ماذا تعمل يا أستاذ علي في الخليج؟
جاوب في فخر واضح:
_ أنا مهندس حاسب آلي يا عمي.
_ وهل ستعيش خارج مصر دائما؟
_ أرى أن حال البلد الآن لا يشجع على العودة، وأظن أن عمر يشاركني الرأي.
نظر إليّ عليّ كأنه أراد الانتقام مني عندما ضحكت حين لم تسلم عليه شيماء.
جاوبته في برود:
_ عذرا، فيما تتحدثان؟
قال متحمسا:
_ نتحدث عن حال البلد والعمل والسفر للخارج.
حاولت أن أتصنع الود بعد أن ضغطت أمي على قدمي، فجاوبته:
_ أنا لا أحبذ السفر، سأعمل هنا.
وأطرقت صامتًا.
بعد ذلك بدأنا نهيئ تقاربًا بين شيماء وعلي ليتحدثا ربع ساعة سويًّا يستطيعان بها أن يقررا إذا كان كل واحد منهما مناسبًا للارتباط بالآخر أم لا، كنت قلقًا من هذه النقطة؛ لأن الخطوبة لو تمت فلن تستمر أكثر من شهر، وليس هناك فرصة للتأكد من صحة الاختيار من عدمه.
انسحبت من الجلسة ودخلت غرفتي، وتركت شيماء تحدد مصيرها في ركن من غرفة الجلوس تحت مراقبة أبي وأمي ووالدة العريس وحركة عقارب الساعة.

دخلت غرفتي تكاد الغيرة على شيماء من جلوسها مع شخص غريب تفتك بي، دائما ما كنت أثير المشاكل مع خطّابها بسبب غيرتي الشديدة عليها التي كانت تتقبلها وتحتويني دائما ولم توبخني يومًا بسببها، وكيف لا أغار عليها.. حاولت أن أشغل نفسي في أي شيء، أقلب في

كتبي أو في الجرائد والمجلات. وبعد نصف ساعة فهمت من الأصوات التي في الخارج أن الضيفين يغادران المنزل.

دخلت أمي الغرفة ووبختني على طريقتي في الكلام مع العريس فأدرت دفة الحديث وسألتها عن ردة فعل شيماء، فقالت إنها تحدثت معه وظهر الارتياح على وجهها وبدا عليها علامات الرضا. بعد فترة جاءت شيماء إلى غرفتي متسائلة:

_ ما رأيك يا عمر؟

_ لا أعلم، دعوني أفكر قليلًا.

_ كف عن المزاح.

_ وهل جاء ليطلب يدي أنا لتسأليني عن رأيي، الرأي يرجع لكِ.

_ رأيك فيه عمومًا، ماذا ترى فيه من صفات؟ ولا تخرجني عن شعوري.

_ أراه جيدًا ومناسبًا جدًّا.

_ وأنا أيضا أرى هذا، ولكني لم أتسرع، وخاصة أنه يريد أن يتم الزواج بسرعة ونسافر معا، والبعد عنكم لن يكون بالسهولة التي يتوقعها الجميع.

_ خذي وقتك في التفكير ولتستخيري الله في الأمر، وأظنه خيرًا، كم أتمنى سعادتك رغم أن فراقك سيقتلني.

احتضنتني شيماء، ولا أدرى كيف بكيت في حضنها، هل لأني شعرت باقتراب ابتعادها عني وخروجها من حياتي، أم بكائي كان تعبيرًا عن حالة الفوضى التي ضربت أركاني منذ رؤية حلمي المزعج للمرة الأولى وما أعقبه من أحداث؟ لم أهتدِ إلى سبب بكائي، ولكن كل ما أعرفه أني كنت بحاجة إلى الاحتضان والاحتواء والبكاء حتى لو لم أستطع تفسير السبب.

تركتني شيماء بعد أن طمأنتني وهدأت نفسي، ثم تصنعت الابتسام ومازحتها قبل أن تخرج مبتسمة.

مر يومان من الأسبوع المحدد للرد على العريس، قضيتهما في صنع اللاشيء، واصلت تجاهلي المتعمد لاتصالات حنين، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل قطع جرس الهاتف هدوء البيت فقمت مسرعًا ملبيًا النداء وألف توقع مزعج جاء على خاطري، ولكني عندما رفعت السماعة خابت توقعاتي لأجد ما لا أتوقعه وهو صوت حنين تنادى:

_ ألو.

لم أرد وكتمت أنفاسي.

_ ألو.

انتظرت أن تغلق الخط.

_ عمر، إني بحاجة إليك.

لم أفكر ونطق لساني:

_ حنين.

بصوت يغالبه البكاء قالت:

_ أين أنت؟ أحاول الوصول إليك بشتى الطرق ولم أجدك.

بنبرة معتذرة جاوبتها:

_ أعتذر لكِ، فقط أنام كثيرا وأستيقظ في أوقات لا يصح أن أهاتفك فيها.

_ أريد أن أراك في أقرب وقت للضرورة القصوى.

_ فلنتحدث الآن إذن.

_ لا، يجب أن أراك.

_ سأحاول ترتيب لقاء قريبًا.

_ لا تحاول، بل سأنتظرك غدًا في نفس المكان والموعد، ولن أقبل أي أعذار.

وضعت السماعة والتفت لأجد أمي تسألني عن المتصل فكذبت وقلت إنه ياسين، وتصنعت أمي تصديقي بعد نظرة ارتياب وقلق.

وقضيت باقي الليل وعقلي يتلذذ بـالبحث عن إجابـة لسـؤال واحـد: مـاذا تريـد حـنين ومـا سـر إصـرارها على رؤيتي؟ لم أحس بهذه اللهفة منها على لقـائي قبـل ذلـك، وبـدأت أضـع الاحتمـالات والأجوبـة ثم أفنـدها ثم أصـوغ السؤال بطريقة أخـرى، وهكـذا دواليـك حـتى مـر الـوقت دون أن أشـعر بـه، وفي تمـام الواحـدة ظهـرًا كنت عنـد تمثال السلسلة لأجد تمثالً آخـر يجلس على بعـد مسـافة منه بعيـنين تختفيـان في محجريهمـا، وأثـار الليـل الأسـود تقبع تحتهما، ووجه شـاحب وشـفاه مرتعشـة وجسـد يـدل على تـدهور حالـة صـاحبته كـانت مرهقـة كشـمعة يخفت ضوؤها وتستعد للانطفاء، قلت بصوت ضعيف:

_ حنين.

_ عمر، كنت أخشى من عدم حضورك.

_ ماذا هناك يا حنين، هل أنتِ مريضة؟

_ أنا لست بخير، أنا في حالة يرثى لها.

بكاؤهـا مـع بدايـة محادثتنـا لا ينقطـع ويزيـد مـع الـوقت. حاولت أن أهدئها حتى تستطيع إخباري بما حدث.

_ اهدئِي من فضلك، وأخبريني ماذا حدث؟

_ منذ أسبوع وأنا أتعرض لكابوس غريب ومخيـف، لا أجـد له تفسيرًا ولكنه مرعب جدًّا.

_ دعوتُ الله في سرى بألا يكون توقعي في محله.

_ أخبريني به، هيا.

أمسكت يدى بكلتا يديها وبدأت تحكي:

_ حلمت بأني مقيدة في شجرة كبيرة، وهناك رجل يرتدى عباءة سوداء مرسـومًا على ظهرهـا هـذه النجمـة، انتظـر (وأخرجتها مرسومة على ورقة وكأنهـا قـدري مطويـة في حقيبـة يـدها) ثم يقـترب مـني ويحـاول أن يمسـك عنقي بوحشية كبيرة ولا أجد من يديـه مفـرًّا (كـان ضـغط يـديها على يدي يزداد مع ارتفاع نبرة صوتها حتى بدأت أظافرها تنغـرس في لحمي) حـتى ظهـرت أنت يـا عمـر، وأخـذت

أنادي عليك بكل قوتي وأنت تقترب مني، فأخذ هو يبتعد، ثم فاجأك رجل عجوز من الخلف وقام بذبحك (شعرت بأن جلدي يتمزق تحت أظافرها حتى سال الدم مني وهي لا تشعر، وأنا أتلذذ بالألم). ثم جاء الرجل العجوز وفك قيودي، والرجل الآخر كان يرتوي من دمك السائل على الأرض ثم ينتهي الكابوس.
من هؤلاء الأشخاص وماذا يريدون مني ولماذا قُتلت؟، أرجوك أخبرني ماذا يحدث؟ أصبح الخوف لا يفارقني، أشعر أني سأفقد عقلي وتنهار أعصابي، ووسط كل هذا أجدك تبتعد عني ولا تريد الحديث معي، أرجوك يا عمر لا تتخل عني، أنا أصبحت أتوهم بأن هذين الشخصين لا يفارقانني، أتوهم أني أراهما في غرفتي وعلى فراشي، حتى الآن أشعر أنهما موجودان معنا ويستمعان لما نقول.
ارتمت حنين في أحضاني تهزني بشهقات بكائها، احتل الصمت أوردتي ولم أنطق ببنت شفة، وتركتها تبكي إلى أن رفعت رأسها وبدأت تهدأ:
_ لا تخافي يا حنين.
_ لا أعلم لماذا غادرني الخوف وأنا بجانبك يا عمر.
_ سأظل بجانبك دائما ولن يستطيع أحد إيذاءك.
قضيت مع حنين بضع ساعة على نفس وتيرة الكلام التي تجلب لها الاطمئنان، وبدأت أنظار بعض من كانوا يجلسون بالقرب منا ويراقبون ما يحدث تبتعد عنا، ثم طلبت منها أن تعود لمنزلها لترتاح وتحمي نفسها بالقرآن والذكر الكثير لتنتهي هذه الأحلام والوساوس، وطلبت منها أن تتصل بي إذا تكرر الحلم مرة أخرى، قالت لي أيضا إنها حكت كل شيء لأمها وحكت لها عني وأنها تريد التحدث معي للضرورة، فوعدتها بلقاء قريب.
أمها؟ كيف غفلت عنها؟ من المؤكد أنها تعرف الكثير وخصوصًا عن قطيعة أبي مع سلامة.

عدت إلى بيتي بأيـدٍ مشـوهة من أظافرهـا، وقلبٍ ممـزق من حالها.
اتضح كل شيء؛ المغربي يضغط عليّ لأوافق على خدمته بحنين، وسلامة يساعده على ذلك لينقذها من ولايته إذا أنا أصـررت على مـوقفي الـرافض، في كـل الحـالات حـنين ضحية لعبة خبيثة يقوم بها المغربي وسلامة، والآن وصلت الرسـالة وفهمت مـا أرادا قولـه، والقـرار الآن في يـدى، فماذا أفعل؟ في كـل الحـالات أنـا سـأنقذ حـنين ممـا هي فيه، نعم يجب أن أنقذها، هذا واجبي نحوهـا الآن. سـأفعل ما يريده سلامة، سأستسـلم لإرادة المغـربي، هـذا قـدري ويجب أن أواجهه، لن أسـتطيع الهـرب، سـيطارد كـل من أحبهم وتصاحبهم لعناته بسببي، لا، لن أتـرك هـذا يحـدث، يجب أن أواجه مصيري.

الفصل الرابع عشر

بائع المناديل ..

عدت من لقائي مع حنين ولكنَّ جزءًا مني لم يعد، لا أستطيع الكتمان أكثر من ذلك، أريد أن أتحدث مع أحد وأبوح له بما يحدث، بحثت عن ياسين في كل مكان حتى وجدته، جلسنا على مقهى في مكان هادئ وقصصت عليه كل ما حدث بالتفصيل، كنت أتصنع الهدوء في بداية الأمر لكن مع انخراطي في الحديث دخلت في حالة من التوتر الشديد وطلب مني ياسين التماسك ومحاولة السيطرة على نفسي. ووصلت حالتي إلى أسوئها عندما فشلت في الإمساك بكوب الماء بسبب ارتعاشة يدي، لم يقاطعني أثناء حديثي وظل صامتًا ولم تخلُ تعبيرات وجهه من الاندهاش، والشفقة، والحزن في نهاية الأمر. حاول تخفيف الأمر عليّ وطمأنني.

اقترح أن نذهب لشيخ من الشيوخ الذين يعلمون في أمور الجان ليساعدنا في الأمر. ولكني رفضت وأخبرته أني سأذهب لسلامة وأتولى عنهُ العهد وأنقذ حنين ويحدث بعدها ما يحدث.

وعدني ياسين بأنه لن يتركني مهما حدث وأنه سيقف بجانبي حتى النهاية، افترقنا بعد ساعتين وشدد عليّ أن أطلعه على أي جديد في الأحداث.

عدت إلى المنزل فأخبرتني أمي أنهم عزموا أمرهم بعد موافقة شيماء على الموافقة على العريس، حاولت التماسك أمامها وأظهرت موافقتي أنا أيضا واهتمامي بتفاصيل ما سيحدث في الأيام القادمة حتى إتمام الزواج، ثم تسللت إلى غرفتي هاربًا من عين أمي التي تغرقني بعلامات الاستفهام عما يدور والتعجب من تغير أحوالي وانقطاع مكالماتي مع حنين، لم أخلع ملابسي واستلقيت

على فراشي مثقلًا بالهموم، كم تحملني هذا الفــراش في معظم أيـامي الثقيلـة! تخيلت كيـف سـيكون العهـد الـذي سيربطني بالمغربي، هل سيطلب مني سلامة ديكًا بعـرف أحمر ويذبحه ثم يتلو التعاويـذ على دمـه ويلطخ بـه وجهي وجسدي، أم سيذهب بي إلى المقابر ويطلب مني المبيت ليلة مع رفات الموتى؟

أخذت الأفكار تتزاحم وكل واحدة أسوأ من الأخـرى، ثم فقدت الوعي بما حولي.

اســتفقت من نــومي واســتوعبت أني نمت لــوقت طويل، لم يعد عندي رغبة للطعام، حالتي الصحية تتــدهور والنــوم هــو راحــتي الوحيــدة، بعــد منتصــف الليــل تبــدأ الذكريات في الحضـور إلى عقلـك كأنـه الـوقت الرسـمي لنزهة خارج القبور التي تخبئهـا فيهـا لتتحـرر داخـل القلب والعقل وتسود فسادا وطغيانًـا في ليلـك لا يسـيطر عليهـا يء ولا يردعها رادع.

شعرت بأني بحاجة إلى السير في الهواء الطلـق. خـرجت في وقت متــأخر من الليــل لا أعــرف إلى أين أتجــه، ولا أملك أدنى فكرة عن سـبب نـزولي إلى الشـارع في هـذا الوقت، كل ما أعرفه أني أريد أن أهيم على وجهي لفـترة دون هــدف. الهــدوء يســود الأجــواء في طقس خامــل لا تزعجه إلا بعض النسمات الرقيقـة بين حين وحين، واضـعًا يدي في جيبي مشيت، كم كرهت حركت يدى على جانبي وأنا أسير، كثيرًا ما تخيلت طريقة سيري، كثيرًا مــا راقبت ظلي وحركته، دائما ما أنتقد نفسـي ولا أرحمهـا حـتى في الأشياء العادية التي لا تسـتحق الـذكر. يخلـو الطريـق من المارة، أشاهد بعض الكلاب الضالة تتجمـع حـول القمامـة لتسد جوعها بمـا تجـده من بقايـا الطعـام لمـاذا يسـميهم النــاس كلابًــا ضــالة؟ إنهم يعرفــون الأمــاكن والشــوارع والأحيـاء والبشــر الــذين يسـكنون في محيطهم، يعرفــون دائما وجهتهم ولا يضلون سبيلهم، علموا أني إنسـان ضـال

خرج يبحث عن نفسه. بمجرد اقترابي بدأ نباحها عاليًا كأنها تهددني بعدم الاقتراب، ولكني اقتربت فصمتت لما رأتني، ربما رأفوا بحالي ولم يعترضوا إذا انضممت لهم أشاركهم في وجبتهم لعلهم شموا رائحة الجوع تفوح من معدتي التي لم يزرها الطعام من يومين، في بعض المواقف يفوق الحيوان الإنسان في الشفقة، تقدمت في سيري رافعًا رأسي للسماء فقطع نظري مجموعة من الحشرات تتجمع حول عمود الإنارة يجذبها الضوء الخافت الذي ينبعث منه، الأضواء دائما تجذب النظر والخافتة منها تثير اهتمامك بما يلفها من ظلام، بعد خطوات رأيت قطة سوداء يقول الناس، وما أكثر ما يقول الناس، وهل لدى الناس شيء سوى القيل والقال؟ يقولون إن القط الأسود ما هو إلا شيطان أو تسكنه روح شريرة، وهل خلق الله أرواحًا شريرة؟ ابليس نفسه لم يكن شريرًا في بداية الأمر ثم جرى الشر فيه، الله خير ولا يخلق إلا الخير، لكن الخير والشر هما ما نقرره نحن بأفعالنا وإرادتنا، نظرت إلى القط ونظر إليّ، رأيت عينيه حينها جمرًا يتقد مع أنياب بارزة، وددت لو سألته: هل تسكنك روح شريرة؟ ولكني تراجعت عندما تخيلت ردى فعلي لو نطق وجاوبني: نعم أنا روح شريرة، سيكون موقفي محرجًا جدا أمامه. هاجر أخبرتني أن المغربي جن صالح لا يريد بي شرًّا وسلامة أكد أنه ينتظرني، لماذا لا يبحث المغربي عن قط أبيض يسكنه إن كان يدعي الفضيلة؟ بعض الناس يشتكون من الاهتمام إذا جاء من الشخص الخطأ، لا أعلم ماذا سيكون شعورهم إذا جاء الاهتمام من نفر من الجن؟ ربما امتد بي السير ولكني تجنبت طريق الشجرة والأرض المهجورة وبيت سلامة، تعبت من السير ولم أهتدِ إلى غايتي، وهل عندما قررت السير كان لي غاية؟ بعض من الوهم لا يضر سأقنع نفسي أني كنت أبحث عن غايتي ولم أجدها، وعليّ الآن أن أذهب إلى غرفتي وأرتاح قليلًا،

لم أجنِ من سيري سوى إزعاج الكلاب الضالة والتنمر على القطط السوداء ومراقبة الحشرات وهي تمارس هوايتها وتسعى لنهايتها.
نحن البشر مزعجون حقًّا للكائنات الأخرى على هذا الكوكب، لماذا لا نتركهم وشأنهم في فلكهم يسبحون.
تعالت أصوات المؤذنين تعلن عن ميلاد فجر جديد، جاءت لتنهي الليل بهدوئه القاتل، جاءت لتبشر الظلام بانتهاء مهمته الثقيلة في السيطرة على مجريات الحياة. توجهت إلى أقرب مسجد مني ودخلت وتوضأت وصليت، لم أنقطع عن العبادة ورضيت بما كتبه لي ربي، خرجت من المسجد أخف وزنًا، أشعر بأني تركت همومي بالداخل أو سقطت مني سهوًا. قررت العودة للبيت، رأيته في معطفه القديم باهت اللون وبنطاله المطوية أطرافه حتى الركبتين وغطاء للرأس تحته وشاح يكاد يخفي وجهه كله الذي لا يظهر منه سوى عينين شبه مغلقتين وأنف كبير وشفاه غليظة ولحيته البيضاء التي لم يحلقها منذ سنين، في طريق رملي لا يستطيع الحركة، فشلت عجلات كرسيه المتحرك في التغلب على ثقل الرمال، ينظر إلى قدميه المبتورتين وكأنه يلومهما. وجدت نفسي أتقدم إليه لأساعده، لم أتكلم ولم يعترض، وصلنا إلى طريق أسفلتي، ما أصعب أن يكون مصير إنسان بين يدك وتكون مسئولًا مسئولية تامة عن خطوته القادمة. ثم سألته
_ أين أنت ذاهب يا سيدى؟
_ إلى محطة الحافلة الحكومية.
_ ألا يوجد من يساعدك؟
_ أي مساعدة، أنا ذاهب إلى العمل.
_ عمل؟ كيف؟ وماذا تعمل؟
_ أعمل بائعًا للمناديل.
_ ألا يوجد من يتولى رعايتك؟

_ ولماذا أنتظر من يرعاني؟ أنا أستطيع تدبير أمري.
_ أعانك الله.
_ وأعانك يا عمر.
اندهشت عندما نطق اسمي.
_ كيف عرفت اسمي يا عماه؟
_ إنه مدون على وجهك.
تحسست وجهي بيدي؛ فلم أجد شيئًا، ونظرت في مرآة سيارة على جانب الطريق فلم أجد شيئًا أيضًا.
_ أظن أنه عليك الذهاب الآن.
نظرت حولي فوجدتني بالقرب من منزلي.
_ نعم تقريبًا، ولكني سأصحبك حيث تريد.
_ أشكرك يا بني، يكفي هذا.
سر في طريقك يا عمر ولا تخف، حتى وإن بتروا لك قدمك ستستطيع الوصول ما دمت تريد ذلك.
ودّعني ملوحًا بيده واتجه في طريقه، واتجهت أنا إلى منزلي. لم أتعجب كثيرًا من لقائه قدر عزمي على التدبر في نصيحته.

دخلت شقتنا فوجدت أبي مازال على سجادة الصلاة فاستجوبني عن سبب تأخري؛ فأخبرته أني كنت مع ياسين، وصليت الفجر. وبالطبع إذا قابل ياسين وسأله سيؤكد له ذلك، حتى لو لم أقابل ياسين وأخبره بما حدث ، أحياناً الكذب يكون ضريبة للصداقات القوية.

دخلت غرفتي وبدلت ملابسي وألقيت جسدي على سريري الذي أسمعه الآن ينادي واشتاق لصحبتي. فكرت في الرجل الذى قابلته هل هو رسالة من رسائل القدر؟ وهل قابلته فعلا أم توهمت ذلك؟ قطع تفكيري زقزقة العصافير التي لا تمل من الاستيقاظ مبكرًا، وشعرت بها غاضبة مني وتقول هذا وقت الاستيقاظ وليس وقت النوم أيها الأحمق؛ فوضعت وسادتي على

أذني لأرتاح من ملامها اللاذع، وأعلم بالطبع أنها على حـق ولكني للأسف إنسان ولست عصفورًا.

الفصل الخامس عشر

سر العهد..

قررت الذهاب إلى سلامة لأخبره أني قبلت الأمر، وعند غروب الشمس عزمت أمري وتـوجهت إليـه، وجدتـه عنـد الشجرة بهيئته المعتادة.

_ سأنفذ كل ما طلبته مني، لكن عندى شرط واحــد، قلت منفعلًا.

_ غيرت رأيك بهذه السرعة. ناظرًا في الفراغ قالها

_ أتحبها إلي هذا الحد؟

_ من؟

_ حنين.

_ حنين ليس لها صلة بما يحدث بيننا.

_ كنت متأكدا من موافقتك لتحمي أبنتي.

_ كنت تعلم أنها أبنتك ومع هذا تأذيها؟

_ بالطبع كنت أعلم، ليست صدفة كما تظن يا بُني.

نهرته فاقدا لهدوئي قائلا:

_ لا تناديني بُني.

قهقه في سخرية، وحرك رأسـه يمينًـا ويسـارًا، ثم ضـرب بيده على صدره قائلًا:

_ هذا الصدر جعلتـه قـبرًا لأسـرار كثـيرة لا تـدعني أبعثهـا للحياة من جديد، متي ستحمل عهد المغربي؟

_ بعد زواج أختي، هذا شرطي.

صـمت لمـدة دقيقـة مغمض العيـنين، مطأطئًا رأسـه في خشوع.

ثم نطق:

_ وهل تستطيع تنفيذ العهد؟

_ نعم أستطيع.

_ مهما حدث؟

_ مهما حدث.
_ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا؟
_ ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا.
_ سأنتظرك في بيتي يوم زفاف أختـك في تمـام السـاعة الثانية عشر.
_ وحنين؟.
_لا تقلق عليها ، كانت محاولتي للضغط عليك لتوافق وقد نجحت في مهمتها.
_ أنت شيطان رجيم.
كان يلعب بنبوته وظننته سيهوي به على رأسي.
_غـدا سـتجعلك الأيـام تقسـو علي كـل أحبائـك وسـتبدأ بنفسك.
مد لي النبوت لأمسكه.
أدرت ظهرى له ولوحت يدى في الهواء عندما قال:
_ سأنتظرك، لا تتأخر يا عمر .
مرت الأيام بعد ذلك هادئة، وصـار زواج شـيماء أمـرًا على وشك الحدوث بعد إعلان خطبتها. وانشـغلت الأسـرة في الإعداد ليوم الزفاف وسفرها في نفس الليلة.
هـاتفتني حـنين وأخبرتـني بتوقـف الأحلام المزعجـة عن زيارتها في أثناء نومها، لكنها تشعر بإرهاق شديد والمرض يسـكن جسـدها، طمأنتهـا أن كـل شـيء انتهى وسـتتماثل للشفاء، لكنها كانت يائسة جدًّا وصوتها نقـل إلي إحساسًـا بـالقلق عليهـا، انقطعت اتصـالاتها عـني لفـترة حـتى رن الهاتف فاعتقدت أنها هي ولكن خاب ظني :
_ كيف حالك يا عمر؟
_ الحمد لله، إني بخير يا كمال.
_ أين أنت ؟ ولماذا تتغيب عن الحضور إلى الجامعة؟
_ بعض المشاغل يا صديقي لا أكثر.
_ عمر، هناك سيدة كانت تبحث عنك اليوم.
_ سيدة؟ وماذا تريد منى؟

_ وجـدتها تبحث عـني وعنـدما التقينـا طلبت مـني رقم هاتفك فرفضت، فطلبت مني أن أبلغك أنهـا والـدة حـنين وسـتنتظرك غـدا للضـرورة القصـوى وقـالت إنـك تعـرف المكان والموعد.

أنهيت المكالمة مع كمال واستقبلت هذا المـأزق الجديـد، والدة حنين؟ لماذا تريـد مقـابلتي؟ هـل تـوقعت أني جئت من الماضي لأفسد عليها حياتها وأهدد مصير ابنتها؟

على كل حال مهما كان السبب سأذهب إليهـا وأعـرف مـا تريد..

في اليـوم التـالي هيـأت نفسـي لاسـتقبال أي شـيء ستقوله والدة حنين وتـوقعت قسـوتها في الحـديث خوفًـا على ابنتها. وصلت في موعدي لأجـدها في نفس الموضـع الذي كانت تجلس به حـنين. كـانت ترتـدي معطفًـا طـويلًا داكن اللـون يغطي جسـدها تمامـا وحجابًـا أسـود، حـنين تشـبهها كثـيرًا، وعلمت الآن من أين لهـا هاتـان العيـنين الزرقاوان، تمهلت قليلًا ولم أكلمها، فقط جلست بـالقرب منها فنظرت هي في ساعتها، كـان كـل شـيء فيهـا يـدل على شخصية قوية، دائما مـا أشـعر أن الشخصـية القويـة تخفي خلفها كثيرًا من الندوب والجروح الغائرة، ثم نظرت لي وقالت متوجسة:

_ أأنت عمر؟

_ نعم.

_ أنا والدة حنين.

انفجرت في البكاء بحرقة شديدة وقالت:

_ إن حـنين في شـدة المـرض والألم، ابنـتي تمـوت ولا أستطيع أن أنقذها، حنين أخبرتني بعلاقتهـا بـك وحكت لي كثيرًا عنـك، حـاولت أن أبعـدها عنـك بـأي طريقـة ولكـني فشـلت، طلبت منهـا رقم هاتفـك ولكنهـا رفضـت أيضًـا، فذهبت أبحث في الجامعـة عن طريقـة أتوصـل بهـا إليـك حتى قابلت صديقك كمال.

_ ولماذا تريدين أن أبتعد عنها؟
نظرت لي بتمعن قائلة:
_ لأني أعرفـك جيـدًا، وأعـرف عن حياتـك أكـثر ممـا تعلم أنت!
_ وكيف يكون هذا؟
_ اصدقني القول: هل تعلم أن سلامة الصـعيدي هـو والـد حنين؟
سكتُّ هنيهة ثم جاوبتها:
_ نعم ساقتني الصدفة إلى معرفة هذا.
_ لكنك لا تعلم أن سـلامة يريـد الانتقـام مـني لأني تركتـه وانفصلت عنه وأنت الآن أصبحت وسيلته في هذا الانتقام.
_ أنتِ توجهين إليّ الاتهام بـأني متـواطئ مـع سـلامة في إيذاء حنين والانتقام منكِ؟
_ لولاك ما استطاع الوصول إليها.
دخلت في حالـة بكـاء جديـدة ولم أعـرف كيـف أتصـرف، فصمت حتى هدأت ثم قالت:
_ أنـا أعلم يـا عمـر أنـك تجهـل مـا دبـرهُ سـلامة، ولكـني أرجـوك أن تسـاعدني في إنقـاذ أبنـتي، عجـز الطب عن تشخيص علّتها أو شفائها، أنت أملي الوحيد في نجاتها.
تسـرعت فأخبرتهـا أني اتفقت مـع سـلامة لإنقـاذ حـنين وتنفيذ العهد.
فسألتني مدهوشة :
_ وهل تعلم ما هو العهد ؟
_ لا، لا أعلم شيئًا عن طبيعته.
_ ألم تسأل والدك عنه؟
انزعجت من إقحام والدي في الأمر فصِحتُ معترضًا:
_ وما دخل والدى بهذا الأمر؟!
تنهـدت والـدة حـنين ونظـرت إلى البحـر، ثم نظـرت إليّ وقالت:

_ وأظنك لا تعلم أيضا ما سبب القطيعة بين أبيك وبين سلامة؟
_ حاولت ولكني لم أصل إلى الحقيقة.
_ سأقص عليك كل شيء من البداية حتى تفهم يا عمر ما يدور من حولك. تقابلت مع سلامة وكنت وقتها من الغجر الذين يتنقلون بين البلاد، أراد سلامة الزواج بي فوافقت لأتخلص من عناء حياتي، وجدته شخصًا غريب الأطوار، يتحدث مع نفسه كثيرًا أو ربما اعتقدت ذلك، لم يكن يسمح لي بمغادرة المنزل نهائيًّا، أحيانًا كان يصلي وأحيانًا أخرى يشربُ الخمر بلا هوادة، كان قد حكى لي عن علاقته بوالدك وصداقتهما، ولكنه لم يفصح عن سر قطيعتهما، وفي ليلة من الليالي كان مخمورًا، تشاجرت معه وعايرته بقطيعة أبيك له بسبب سيرته السيئة وأنه يتبرأ من صداقته، ثار ثورته وأراد الدفاع عن نفسه، فحكى لي كل شيء وهو أن أباك أخبره بوجود كنز تحت الشجرة العتيقة ويطلب مساعدته في العثور عليه ويتقاسمانه معًا، بالطبع وافق سلامة ونزلا إلى نفق الكنز فداهمهما جن يسمي "المغربي" وعرض عليهما أن يعطيهما الكنز مقابل العهد، نفذ سلامة العهد ولكن والدك رفض، ومن هنا كان فراقًا بينهما.
_ وما هو العهد ؟
صمتت هُنيهة ثم قالت متأثرة بذكرياتها:
_ أن يقتل كل واحد منهما والده.
جحظت عيني من المفاجأة
_ وهل قام سلامة بقتل والده؟
_ نعم، ثم قام بدفنه تحت سريره وأصبح مصاحبًا للمغربي.
_ ولماذا لم يعطه المغربي الكنز بعد تنفيذه للعهد؟
صرخت منفعلة:
_ لأنه نجس.

_ بمعنى؟
_ سلامة أ.....ـ
قلت متوسلًا أن تكمل حديثها، ماذا فعل سلامة ليُحرم من الكنز؟
_ ستعلم كل شيء في وقته، كل ما يشغلني الآن هو إنقاذ حنين، وأنا أعلم أن سلامة هو السبب في مرضها، لا أعلم كيف سأنقذها، أرجوك يـا عمـر حـاول أن تفعـل شـيئًا من أجلها، أي شيء.

أنهيت حواري مع والدة حنين وانصرفت باكية بعد أن أعطيتها رقم هـاتفي، وودعتهـا بنظـرات الشـفقة والعجـز الـذي احتلـني في هـذه اللحظـة، عـدت إلى الـبيت أرتب أفكاري، كما تـوقعت كشـفت لي والـدة حـنين عن الكثـير مما كنت أجهله وكيف جاء بها سلامة وتزوجهـا ثم هروبهـا بعـد ولادة حـنين، وأخبرتـني كيـف تشـردت في الشـوارع حتى وجدت عملًا عند الرجل الـذي تزوجهـا بعـد أن حكت لـه قصـتها بالتفصـيل وعطـف عليهـا وعلى ابنتهـا الـتي اعتبرها ابنته لأنه لا ينجب، وزاد احترامي لوالدي وتقديري له وندمت كثـيرا على انتقـادي اللاذع لـه، وتـأزمت الأمـور بتدهور حالة حنين ومعرفتي ما هو العهد الذي عليّ تنفيذه لإخضاع المغربي، هل أذهب لسـلامة مـرة أخـرى أناقشـه في تغيير العهد؟ بالطبع سيهزأ من سـخافتي ويهـددني إذا رفضت الأمر، ماذا سأفعل، كيف تعقدت حياتي بكـل هـذه البساطة؟
_ لا أرى تعقيدًا، حياتك تتحسن.
توهمت أني أسمع هذا النداء من داخلي.
_ وهل بعد ذلك تعقيد؟
ألم تمل وحدتك؟ لو نطقت جدران هـذه الغرفـة لطردتـك منذ زمن بعيد، كم يكرهك هذا السرير.
_ إلى أين أذهب؟

_ إلى الحياة، إلى المشكلات، إلى كـل مـا يجعلـك تشـعر بوجودك.
_ ولكن مطالب الحياة تناقض مبادئي وأحلامي.
_ ومنذ متى وأنت تملـك أي مبـادئ أو أحلام؟ أنت منـافق كبير تبتعد عن النساء وأنت تتمنى أن تقيم كل يوم علاقــة عاطفية، تتظاهر بالرضا وأنت تحقـد على كـل من حولـك، تظهر احترامـك للآخـرين ومن داخلـك تحتقـر العـالم بمن فيه. ترفض الكنز وأنت تتخيل كيف سيكون حالـك بعـد أن تملكـه واختيـارك للـون سـيارتك ونوعهـا، والـبيت الـذي ستسكن فيه وسياحتك في كل بلاد العالم.
_ لالا أنت كاذب، أنا لم أفكر فيما تقول.
_ وأنت أيضا تكذب نفسك قبل أي شيء.
_ لن أقتل والدي.
_ ولماذا لا تقتله؟
_ هذا جنون.
_ ومن أخبرك أنك عاقل؟
_ ابتعد عني.
_ أنت من تحتفظ بي، أنا مللت من مرافقتك.
_ لن تؤثر على تفكيري.
_ أنا تفكيرك أيها الأحمق.
شعرت بدوار شديد وضاق صدري بما لا أقـوى عليـه؛ إلى أين سأنتهي وكيـف أريـد أن تنتهي حيـاتي؟ فـوق سـريري المنافق تمددت.
هذا الجسد الهزيل يَكرهني.
هذا الضعف العميق يُكرهني.
مريض أشكو لوعتي نمت.

الفصل السادس عشر

الحادثة

كان حديث والدة حنين عاصفة ترابية ضربت ما تبقى من أمـل في النجـاة، بالصـمت والشـرود والعزلـة حـاولت أن أقضي الأيام حتى موعدي مع سلامة، كنت أقع فريسة كل ليلة للقلق الـذي يتلـذذ بتشـتيت أجـزائي بمخـالب الشـك والظنون دون شفقة، كان زواج شيماء قليلًا ما يــؤثر على حـالتي أو يحتـل جـزءًا من تفكـيري، وهـذا كـان يشـعرني بالجحود، وهبتُ وقـتي لتنفيـذ القـرار الـذي عـزمت عليـه لإنقاذ حنين، التردد لا يكـاد يغـادرني ولكـني أتغافـل عنـه، الجبن يعيق خطواتي ولكني أحاول أن أكـون شـجاعًا ولـو لمرة واحدة في حياتي، أنـا لم أعـد عمـر، هـذا مـا كـانت تكرره أمي وشـيماء دائمًـا في هـذه الفـترة، حـاولت قـدر المسـتطاع إقناعهمـا بـأني بخـير ولكنهمـا لم يصـدقاني، والدى كان يراقبني من بعيد بنظراتـه الـتي تملؤهـا الريبـة في أمري والتهديد في بعض الأحيان، والخـوف في معظم الأحيان، لم يتخلف عني ياسين، كان يزورني يوميًّا ورفض قـراري بعـدم دخـول الامتحـان وانتقـدني بشـدة، ولكـني صممت على قراري؛ لن أدخل الامتحان مادامت حـنين لم تدخله، حنين مازالت تتـألم، لم أتجـرأ على الـذهاب لبيتهـا لرؤيتهـا؛ اكتفيت بمكالمـات الهـاتف للاطمئنـان عليهـا من والدتها التي كانت تُلح عليّ في إنقاذ حنين وكـان انهيارهـا في البكاء هو فرصتي لإنهاء المكالمة.

مرت الأيام رتيبة ثقيلة نـافرة، اليـوم الجمعـة بـاقٍ يومـان فقط علي عُرس شيماء الـذي تحـدد لـه يـوم الأحـد، كـان الإعداد لمراسم الـزواج يأخـذ كـل وقت وتفكـير أسـرتي، شــيماء لم تمــل من التســوق كــل يــوم، وأمي وأبي يتشـاجران بسـبب وبـدون سـبب، فـآخر مشـاجرة كـانت

بسبب عدد المدعوين إلى حفل الزفاف ومن يستحق الحضور ومن لا يستحق ، وكل واحد منهما ينحاز لأقاربه ويرى أنهم أولى، فهذه أمي تشدد على دعوة ابن خالتها السيد المحترم الثري صاحب الوظيفة المرموقة، وترى أن حضوره نوع من التشريف، في حين أن أبي له رأي آخر في هذا الشخص ويراه لصًّا يدعي الشرف فيقول(في بلادي اللصوص مؤمنون حقاً، لا يصلون إلا في الصفوف الأولى ويحفظون خطبة الجمعة لأنهم من يكتبونها. وصلاتهم لا تخلو من"**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**ۖ".وينصحونك دائما بغض البصر وخاصة عن أفعالهم. وينادون بالحجاب وخاصة على سرقاتهم. ويقيمون الليل بزهد في قصورهم. ويخرجون الزكاة للفقراء من أموال فقرائهم.. لصوصنا فاقوا الشياطين مكرًا، احتارت ملائكة الخير والشر في كتابة أعمالهم).

_ كل الأغنياء عِندك غير شرفاء؟

كان هذا رد أمي المعتاد على مهاجمة أبي لقريبها، رغم أن السبب الأصلي هو غيرة أبي على أمي من هذا الرجُل الذي فكر في يوم ما في التقدم لخطبة أمي.

مساء السبت حضر ياسين إلى منزلي وقال:

_ سلامة يريد رؤيتك، استوقفني وطلب مني ذلك.

_ سأذهب لرؤيته.

_ سأذهب معك.

_ لا يا ياسين، سأذهب وسأخبرك بما حدث عندما أعود، لا تقلق.

نزلت مع ياسين وافترقنا بالقرب من بيت سلامة. تقدمت بخطوات ثقيلة أدعي الهدوء والثقة، وجدت الباب مفتوحًا.

_ أنت هُنا؟

_ ادخل يا عمر.

أغلقت الباب بصعوبة شديدة بعد معاناتي مع المزلاج.
وجدته جالسًا على أرضية البيت الترابيـة وأمامـه صـندوقه الخشبي.
_ لماذا أرسلت في طلبي اليوم؟
_ زفاف أختك غدا؟
_ نعم.
_ وددت أن أذكرك بموعدنا.
_ لا تقلق لن أنسى.
وهممت بالانصراف.
_ انتظر يابني.
_ لا تناديني يابني.
لم يعقب على كلامي ولم يرفــع نظــره، ومــد يــده في الصندوق وأخرج منه ظرفًا أسود ومد يده لي.
_ خذ هذا الظرف.
_ ما هذا؟
_ إنها وصيتي.
_ لا دخل لي بوصيتك.
أشحت بوجهى عنه متأففا وعقدت حاجبيا فهمس قائلا:
_أسمع يا عمر، من الغد ستتولي العهد وخدمـة المغـربي وهناك أشياء كثيرة يجب أن تكون علي علم بها.
مددت يدي وجذبت الظرف بسرعة وهممت بفتحـه، لكنـه نهرني قائلًا.
_ ليس الآن.
قذفت الظرف في وجهه من صرختة فالتقطه وأعطاه لي مرة أخرى وقال:
_ غدا،غدا يا عمر قم بفتحه بعد أن تتولي العهد.
وقفت صامتًا.
_ لا تخبر أحد بأمر هذا الظرف.
_ لا تقلق.
_ ولا حتى ياسين.

قرأ أفكاري.
_تستطيع الإنصراف الآن.
خــرجت من عنــده بعــد أن أخفيت الظــرف داخــل سترتي، وبعد خطوات وجدت ياسـين ينتظـرني بلهفـة، لم أخبره بما حدث وطمأنتـه بـأن سـلامة كـان يريـد تـذكيري بميعاد الغد فقط.
ودعت ياســين ولكــني لم أذهب إلى الــبيت؛ لن أستطيع الجلوس في غرفـتي، كثـير من الفتيـات والنسـاء جئن ليحتفلن بشــيماء وتوديعهــا، وقفت متحــيرًا إلى أين سأذهب الآن؟ سرت كالعادة أجوب الشوارع، عزائي أنهــا ليست كأي شوارع. إنها شوارع الإسـكندرية، ربمـا عشـق الأماكن والطرقات لا يغـيره الـزمن ولا يتـأثر بالتقـدم في سنين العمر، لغة فريدة تربط الحـديث بيننـا تقص لي مـا طــرأ عليهــا من تغـيرات وتعــديل وبنــاء وهــدم وتــرميم وتغيرات في وجوه قاطنيهـا، لا أشـعر معهـا بالوحـدة، أمـا البحر فهو الصندوق الأسود لكل الأسرار؛ كم حمل بداخله من شكاوى وأحزان، وراقب عن قرب لقـاءات رومانسـية انتهت بالقبلات الحارة ووعـودًا رنانـة أو بـالوداع للأبـد مـع خذلان الأحبة، لا تلبث أن ترى البحر وتسمع هدير أمواجــه حتى تتصارع الذكريات بداخلك وتتسـابق، من منهـا يخـرج أولا ويسيطر على تفكيرك، من قال إن المنازل والشوارع والطرقـات والشـواطئ والأرصـفة جمـادات لا تشـعر ولا تحس هي وفيـة على الـدوام، لا تجحـد ذكرياتهـا ولا تتـبرأ منها، لا تتخلى عنك وتـرفض لقـاءك، لا تثقلـك بالعتـاب، لا تنتقدك بلا رحمة وتصدر عليـك أحكامًـا قاسـية كمـا نفعـل نحن البشـر مـع أنفسـنا. ربمـا عاطفـة صـادقة أو صـداقة حقيقية، لا أستطيع أن أصنف هـذه العلاقـة الـتي تربطـني بهــذه الأشــياء ولكــني أعــتز بهــا وســأظل أحافــظ على وجودها، ربما لأنها تشعرني بوجودي.

بدون وعي مني وجدت نفسي ماثلًا أمام البحر، جلست في مكاني المعهود أشاهد الأمواج وهي تلطم الصخور على وجهها والصخور ثابتة لا تبدى أي اعتراض مثل مظلوم تعود على قسوة سجانه ، أجلس الآن أطالع بعض صفحات دونها الزمن على صفحات عمري، فهذه صفحة تتزين بألوان مبهجة أشعر بالسعادة تغمرني، وهذه صفحة تنتهي بعلامة استفهام وأخرى تُختم بعلامة تعجب، وهناك أخرى لم تكتمل بعد، وهذه بقايا صفحة ممزقة والتالية صفحة بيضاء لم يخط فيها القدر شيئًا..

ألقيت ظهري على الأرض ناظرًا إلى السماء، هذه العادة التي أحبها أراقب السماء أدقق في شكل كل سحابة؛ فتظهر واحدة على شكل رأس إنسان والأخرى على شكل جمل وثالثة على شكل كلمة، وهناك سحابة كبيرة ستبتلع كسفة صغيرة وتجبرها على الاندماج بها، يحتاج الإنسان أحيانًا لأن يتجرد من كل شيءٍ في حياته، يعيش متفردًا بنفسه، صافي الذهن هادئ السريرة، يستمد بعض السلام الداخلي لفترة يستطيع بعدها مواصلة متاعب الحياة، كنت أقضي الساعات أشاهد وأراقب، وأحيانا كنت أقوم بعد النجوم حتى اعتقدت أني حصرت كل النجوم التي في مستوى بصري فوق سطح منزلنا. وكنت أنتظر من حين لآخر سقوط الشهب وأعتبرها رسالة موجهة لأمر ما عليّ القيام به. كنت متعودًا أن أقضي الساعات ولا أشعر بالملل، لا أعلم إذا كانت النجوم تمل من صحبتي هي الأخرى أم لا، على ذكر النجوم تذكرت ٢٠ أبريل، تاريخ يوم ميلادي، الآن فهمت لمَ أصر أبي على تحديد زفاف شيماء في هذا اليوم، كيف غفلت عن هذا الأمر؟! لم يعلم أبي أنه هذا العام لن يكون هناك احتفال بل كارثة، أبي دائما يتذكر موعد ميلادي حتى لو لم يفعل شيئًا يدل على ذلك لكنه كان دائما يتذكره وكان يقول إنه يو ميلاد محمد الفاتح العثماني وهتلر

المستشـار الألمـاني، أبي رجـل طيب مسـالم شـريف، يستحق أن يمـوت في سـريره، على فراشـه الـدافئ بين أحبائه، ويدفن كما يدفن رجل شريف بين دعـوات النـاس له ودموع المفارقين. أبي لا يستحق أن يموت قـتيلًا. على أي حال أنا أحب هذا الرجل رغم كل شيء.

استعدت بعض الصفاء الذهني الذي كنت أنعم بـه ولا أشـعر بقيمتـه من قبـل زيـارتي المشـئومة لسـلامة، مـر الوقت كنسيم البحر لم أشعر به تحسسـت سـترتي لأجـد الرسـالة في مكانهـا حيث وضـعتها، أخرجتهـا وقـررت أن أقرأهـا، أوقفـني صـوت مرتفـع يشـبه زئـير سـلامة حين هممت بفتحها أمامه، نظرت إلى مصدر الصوت مفزوعًـا، وجـدت بعض النـاس يهرعـون إلى المكـان، كـانت حادثـة سير، أسرعت إلى هناك فوجدت سيارة محطمـة الجـانب مرتطمة برصيف المشاة، أمامهـا على بُعـد أمتـار شـخص ممـد على الطريـق غـارق في بركـة من الـدماء، اقـتربت بحذر، كان هناك شخص آخـر بجـانب السـيارة يصـرخ من الألم ويطلب النجـدة، في حين كـان الرجـل الممـدد على الأرض بدأ جسده ينتفض (لا إله إلا اللـه، الرجـل يحتضـر) سمعت أحد الأشـخاص يقـول ذلـك، سـمعت عن احتضـار المـوتى وخـروج الـروح من الجسـد ولكن هـذه أول مـرة أشاهد الحدث بعيـني، كـانت أجـزاء من جسـده تتحـرك لا إراديًّا، عيناه شاخصتان إلى السـماء دون حركـة، تعبـيرات غريبـة على وجهـه تخيلت أنـه يبتسـم، (لقنـوه الشـهادة). اقترب أحد الأشخاص وركع على ركبتيه ومال بكل جسـده على أُذن المحتضـر ينطـق الشـهادتين ويطلب منـه أن يكررهمـا، (مـاذا لـو كـان مسـيحيًا؟)خطـر في بـالي هـذا السؤال حينها، بعـد ثـوانٍ معـدودة لاحظت توقـف الجسـد عن الانتفاض وسكنت كلّ جوارحه، ليمـد الرجـل الشـجاع يده ويغلق عين المتوفي مردّدًا (البقاء لله مات الرجـل)، كنت أشـك في كلامـه فهـو ليس طبيبًـا، كيـف عـرف أنـه

توفي، بعد وصول الإسعاف أكدوا على كلامه، فـوددت لـو ذهب واعتذرت له عن سوء ظني به، حمل الرجال الرجـل المتوفى إلى سيارة الإسعاف والمصاب إلى سيارة أخرى، ظل الناس مجتمعين حول مكان الحادثة يرددون ما حـدث وكلٌ منهم يحكي عن رؤيتـه للحـادث من زاويتـه الخاصـة، مــذهول في مكــاني ولم أنطــق بخــير أو بشــر من أول وصولي لمكان الحادثة، اقـتربت بخطى متثاقلـة من بقعـة الدماء وفي غفلة من الحاضرين غمست يدى في الــدماء، عدت إلى مكان جلوسـي الأول وأخـذت أتأمـل يـدى وهي مصـبوغة بـدماء إنسـان. كـان لا يـزال دمـه دافئًا ولزجًـا، قربت يدى من فمي في معاناة شديدة وشـممت رائحتـه، ازدادت معاناتي عندما تذوقت طعم الدم، تقيأت وتملكني السعال، ثم مددت يدى وغسلتها بماء البحر قبل أن يجـف الدم عليها، نعم هذا سيجعل قلـبي أقـوى، لن أكـون جبانًـا بعد اليوم، أمامي حـدث كبـير ويجب أن أتمـه على أكمـل وجه، يجب أن أتغلب على ضعفي، يجب أن أتعلم القسوة على نفسي حتى أستطيع القسوة على الآخـرين. تـذكرت سلامة حينها، بدأت أكره نفسي واشتقت لنفسي القديمة.

الفصل السابع عشر

٢٠ أبريل..

في الساعة العاشرة صباحًا عُدت إلى البيت حتى أودع شيماء قبل ذهابها إلى مركز التجميل لتكون في أبهى صورة يوم زفافها، وصلت إلى البيت وجدتها تنتظرني وكانت قلقة عليّ هي وأمي لأني لم أبت في فراشي ليلة البارحة، بدأ وداع شيماءلأمي أولا، لا أعلم لماذا تبكي الأمهات بهذه الحرقة في هذه الساعة، أليس هذا اليوم الذي تحلم به كل أم وهو يوم زواج ابنتها؟ فيض من الدموع والقبلات والكلام غير المفهوم يصدر من أمي وشيماء، وقفت أراقب المشهد وحاولت أن أدير وجهي عنهما حتى لا تنتقل إليّ العدوى وأبكي على بكائهما، انتزعت شيماء من أحضان أمي متعللًا بأنها ستكون سببًا في تأخرها عن موعدها وعريسها ينتظرها أمام باب البيت لينقلها إلى هناك، نزلت الدرج مع شيماء، كان الجيران يودعونها بحرارة وصدق، عند باب البيت جاء دوري لوداعها، شعرت حينها كم أنا طفل صغير أناني يريد كل شيءٍ في يده ولا يهتم بعواقب الأمور، احتضنتني شيماء أولا ثم بادلتها العناق وواصلت بكاءها الذي لم ينقطع منذ ساعة، لم نتحدث سوى بجملتين:

_أنا في غاية القلق عليك يا أخي.

_لا تقلقي يا شيماء، أنا بخير صدقيني.

فتحت لها باب السيارة التي كان يجلس عريسها في كرسي القيادة ولوحت له بيدي لأحييه. لو كان وداعي لشيماء في ظروف غير التي أعيشها الآن لاكتأبت إلى حد الموت، ولكن الهموم التي أعانيها أمر من ذلك، ولكني اكتشفت أن الأحزان كبيرها يأكل صغيرها مثل الأسماك. انطلقت السيارة فصعدت إلى شقتنا فوجدت أمي

مـازالت تبكي وتضـع يـدها على وجههـا، جلسـت بجانبهـا وبدأت أخفف عنها ببعض الكلمات التي لا أتقنهـا في مثـل هذه المواقف، ولكن على كل حال استطعت أن أشـاركها حزنهـا أم فرحتهـا لا أجـد التفسـير الصـحيح لحالتهـا الآن، نظرت أمي إليّ نظرة أعرفها، وكأنها لم تـرني منـذ شـهر وارتسمت الدهشة على وجهها وهي تسألني:

_هل أنت مريض يا بني؟

_لا يا أمي أنا بخير.

_لست بخير يا عمر قلبي يحدثني بذلك.

حينهـا حضـر أبي الـذى ذهب لشـراء بعض الأشـياء وسـأل عن شـيماء فأخبرتـه أمي بأنهـا في طريقهـا إلى مركز التجميل وعادت للبكاء مرة أخرى فبدا الحـزن على وجه أبي وجلس بجانب أمي يواسيها فدخلت إلى غرفـتي، نظرت لنفسي في المرآة لأجد أن دهشـة أمي من هيئـتي كانت في محلها، من هذا الشبح الذي أراه أمامي؟

يبـدو أن إهمـالي في تنـاول الطعـام والأرق الـذي رافقني في الفترة الأخيرة والتدخين المتواصل قـد تـركت بصمتها علي ملامحي، تنهدت في شـجن وألقيت بجسـدي على السرير منهكًا، بعـد سـاعتين انتبهت لصـوت ياسـين يستأذن أمي في الدخول إلى غرفتي، أخذ ياسين يحـدثني عن ما يفترض بي أن أفعله في يوم زفاف أختي وضرورة الاستعداد وشراء ملابس تليق بهذا اليوم، في آخـر حديثـه ذكرني بموعدي مع سلامة..

قضينا النهـار أنـا وياسـين في التسـوق من هنـا ومن هنـاك، ثم عـاد كـل منـا إلى بيتـه لنرتـدي ملابسـنا ونـزين أنفســنا، في حــوالي الثامنــة كنــا في طريقنــا إلى دار المناسبات التي سـيقام بهـا عقـد القـران والزفـاف، كنت حاضرًا في بدلة سوداء على الطراز الحديث، ولكن ذهـني لم يكن حاضرًا، حاولت قدر المسـتطاع أن أظهـر بمظهـر يليق بي كأخ وحيـد للعـروس، نحتُ ابتسـامة مزيفـة على

وجهي قابلت بها كل المدعوين، كنت أحرك شفتيّ فقط لأرد على المهنئين، في التاسعة وصلت شيماء تطل علينا بفستانها الأبيض كفراشة تختال برقتها بين أغصان الياسمين، نسيت كل ما لحق بي من أذى نفسي في هذه اللحظة، تقدمت إليها وانحنيت أمامها وقبلت يدها وقدمت لها باقة من الزهور وسط أصوات الاحتفال وضجيج الحضور، كانت هذه أمنية خاصة لشيماء تريد أن يقوم بها عريسها يوم زفافها، ولأني أدركت أن المهندس علي سيخجل من فعل ذلك توليت أنا الأمر، ضعت من نفسي لبضع دقائق حاولت فيها أن أكون جزءًا من هذا المكان، أبي كان في منتهى الأناقة ببدلته التي قام عم جمعة الترزى بتصميمها له خاصة لهذه المناسبة، وكان يتبع أبي طوال الوقت ليخبر الحضور أن البدلة من صُنع يديهِ، أما أمي المنهمكة في التهاني والاستقبال كانت متألقة كعادتها مستعيدة شبابها مما أثار غيرة بعض النساء منها، وهذا بالضبط ما كانت تقصده، إن النساء مهما بذلت من جهد لا تستطيع فهم ما يقصدن، كان ياسين يلمع كالنجوم في سماء الحفل ويرافقني مثل ظلي، ثم نظرت بجانبي في هذه اللحظة ولم أجده، بحثت عنه بعيني فلمحته في ركن بعيد يراقب حبه القديم في صمت، كانت سارة حاضرة بالطبع مع والدتها وأبيها وأطفالها ولكني لم أر زوجها، تركت صديقي يستعيد أمجاده في حب سارة ويبكي على أطلال الزمن المنقضي، كان ندمه على الحب أشد قسوة من ضياع الحب نفسه.

لم ينس أنها تزوجت وتخلت عنه، شعر بالإهانة. كان ينتقم منها في كل امرأة عرفها، لم يشفِ غليله شيء، كان بحاجة لمن تروضه وتعيد ترتيبه، كان يبحث عن حب يبعث فيه إنسانيته من جديد، لم يتفهم ضعفها وقلة حيلتها أمام الحياة.

عنـد السـاعة الحاديـة عشـرة قـررت الـذهاب إلى مصيري ومغادرة الحفل، توجهت إلى شيماء وودعتهـا في هدوء من طرف واحد، وسلمت على زوجها الذي احتضنته بقوة بنظرات تشير إلى المحبة والتهديد بحسـن معاملتهـا في نفس الـوقت، لن تجـد أخًـا يحب زوج أختـه حبًّا كـاملًا حتى لو اجتهد في ذلك، انتبه ياسين إلى تحركاتي فلحقني عند الباب وطلب الذهاب معي ولكني أقنعتـه بـأن وجـوده هنا أفضل لتغطية غيابي، ودعته قائلًا:

_ إن لم أهاتفك حتى صلاة الفجر فلتبحث عني.

مهما تواجـد الأشـخاص في حياتـك ومهمـا أقمت من صـداقات حقيقيـة سـتجد هنـاك وقتًـا يجب أن تكـون فيـه وحيدًا ولن تنتظر المساعدة من أحد هذه أوقات تحدد بهـا مصيرك..

عدت إلى المـنزل ودخلت غرفـتي، وضـعت الظـرف الأسود الذي لم يفارقني منذ أخذته من سـلامة في الجيب الخلفي للبنطال، أما السـكين الـذي اشـتريه منـذ يـومين فوضعته بين البنطال وبين جسدي وشددت عليـه حـزامي جيـــــــدًا واختفي تحت القميص وتخليت عن معطفي من توتري، خرجت من غرفتي لأواجـه قـدري فتـذكرت حـنين الـتي أفعـل من أجلهـا كـل هـذا، هاتفتهـا فجـاوبتني أمهـا وأخبرتــني أن حــنين مــازالت في حالــة الغيبوبــة الــتي أصابتها، أكدت عليهـا أن وقت شـفائها قـد اقـترب، أنهيت المكالمة وأخذت أذكر نفسي بما أنا قادم على تنفيذه، أنـا ذاهب الآن لأقابل سلامة وأتولى عهد المغربي، ولكـني لن أقتل والدى بل سأقتل سـلامة، نعم هـذا مـا نـويت فعلـه، واتخذت قراري ولا رجعة فيه، نعم أقتل سلامة وأرتاح منه ومن شروره وأنقذ حنين من سحره وأنقذ أبي من عهـده، ولن يستطيع المغربي أن يؤذيني، هـاجر أخبرتـني بـذلك ، والمغربي لن يجد أمامه سوى أن يعود للكنز لا أريد كنـوزًا وسيتركني وشـأني مـا دمت لم أتجـاوب معـه، لن يقـترب

مني نعم قتل سلامة هو الحل وعليّ الآن تحقيق ذلك، ومن المؤكد أن الله سيغفر لي، سلامة يستحق القتل. ولكن هل سأستطيع التغلب على جبني وأقتله؟! كان جسدي كله يرتعد وأنا أخاطب نفسي بهذا الحديث..

تحسست السكين تحت قميصي لأتأكد أنه لم ينزلق بالرغم من أني لم أتحرك خطوة واحدة من مكاني، لحظات تخيلت نفسي في بيت سلامة أطعنه بذلك السكين في قلبه وأدفنه في بيته تحت سريره في نفس الموضع الذي دفن فيه أباه، هذا هو العدل الإلهي؛ سأكون يد الله في تنفيذ إرادته، تسلل إليّ الحماس عند التفكير في هذا الأمر، فتحت الباب بيد مرتعشة وقلب ينتفض، بعد ساعة من الآن على أقل تقدير سأكون قاتلًا، ماذا أقول أنا قاتل؟ تفاجأت بالأمر كأني لا أعلم نتيجة ما أنا مقدم عليه، نعم أنا سأقتل إنسانًا، سأنهي حياة نفس بشرية وأودي بها إلى الموت، التردد سيقتلني، يجب أن أتوقف عن التفكير في أى شيء، يجب أن أكون في أعلى حالاتي الذهنية لأتقن عملي، يجب أن أتماسك، أنا لست قاتلًا، أنا أقوم بخدمة إنسانية من المقام الأول. عندما ذهبت إلى سلامة وأخذت منه وصيته فكرت في قتله حينها، تخيلته جثة هامدة أمامي، لكني ترددت وتراجعت وأقنعت نفسي أن ألتزم بخطتي التي وضعتها منذ فترة لهذا اليوم، كم فكرت كثيرًا في هذا اليوم، كم أخذ من وقتي وأحلامي، وها هو جاء وأنا الذي تخيلته لن يأتي أبدًا، نزلت على سلالم البيت كالريح يجهل الناس أمحمل بالخير أم بالشر. قبل خروجي من باب البيت الرئيسي تمهلت وممدت رأسي بحرص أتأكد أن الشارع خالٍ من الناس، كان هناك شخص واحد يتلكأ في مشيته فانتظرت مترقبًا حتى ابتعد عن أتجاه سيري، انطلقت إلى الشارع ألتفت يمينًا ويسارًا في مكر وخبث، اتخذت الاتجاه الشرقي المؤدي إلى بيت سلامة وينتهي بالأرض

المهجــورة، أســرعت في خطــوتي أكــثر وكــل خطــوة أتحسس السكين أخشى أن يـنزلق دون أن أشـعر، أصـبح بيت سلامة على مرمى بصري الآن، الجو يغلفـه السـكون ونسمة برد خفيفة تضرب جسدي تساعدني على الانتبــاه، لو لم أكن ذاهبًا لقتـل سـلامة لكنت اسـتمتعت بهـذا الجـو وتنزهت أغني راكلًا أحجار الطريق بقدمي كمـا أحب. كـل شـيء يسـير على مـا يـرام حـتى نـاداني(عمـر)، نظـرت متوجسًا فوجدته بكرسيه المتحرك على بعد عشـرة أمتـار على يمين الطريـق، حـاولت أن أتجاهلـه وأكمـل سـيري، لكنه ألح في النداء وبدأ صوته يرتفع، فتوقفت وعدت إليـه مرغمًا:

_ كيف حالك يا عمر؟

_ الحمد لله.

_ هل تستطع مساعدتي في الوصول إلى بيت سلامة؟

حاولت أخفي ارتباكي.

_ وهل تعرف سلامة؟

_صديق قديم يا عمر.

دفعته إلى الأمام، فكرت حينها أن أخرج السـكين وأقتلـه، ولكـني لم أجـد مـبررًا مقنعًـا لقتـل شـخص آخـر، وكـأنني اقتنعت أني قادر على قتله أو قتل غيره

_ لا لن أذهب إليـه الآن يـا عمـر، ادفـع المقعـد حـتي أول الطريق الأسفلتي.

حمدت الله في سري.

وضعته على الطريـق الأسـفلتي، فمـد يـده وأعطـاني من أكياس المناديل واحدًا قائلًا:

_ احتفظ به ربما تحتاجه.

راقبته وهو يبتعد، ووضـعت كيس المناديـل في نفس الجيب الخلفي الذي وضعت بهِ الرسالة، واصـلت طـريقي الترابي إلى بيت سلامة فلاحظت أني نسيت تبديل حذائي الثقيل الذي كنت أرتديـه في الحفـل، وشـعرت أنـه يعـوق

حركتي، هكذا يقع المجرمون في الخطأ ويهتدى الناس إلى جرائمهم إنه النسيان، عليّ أن أستعيد تركيزي حتى لا أخطيء مرة أخرى، وصلت إلى الباب وتمنيت ألا أجد سلامة وأعود من حيث أتيت، بل سأهرب إلى أبعد مكان أهرب من كل هذا الجحيم الذي وجدت نفسي فيه دون مبرر وأنسى الأمر برمته وينساني، لكني تذكرت حنين وحياتها التي من الممكن أن تنتهي بين دقيقة وأخرى، حاولت التماسك مرة أخرى، نعم حنين تستحق الحياة وسلامة يستحق الموت، هذا حكمي وسأنفذه، طرقت الباب مترددًا فوجدته مفتوحًا، فدفعته برفق فانفتح على مصراعيه.

_تعال يا ولدي، أدخل.

ناداني صوته من داخل البيت وشعرت بقدمي قد شُلت ولا أستطيع التقدم خطوة واحدة.

_ اغلق الباب.

فعلت ما طلبه كأنني تحت تأثير هيبته القاتلة، وجلست على الكنبة كاد السكين ينغرز في فخذي حينها، وجدته جالسًا على التراب، كانت الرؤية غير واضحة بسبب الإضاءة الخفيفة، مد يده وأخذ حزمة من الحطب وألقاها في النار الموقدة أمامه فالتهبت والتهب قلبي خوفًا عندما نظر إليّ، كان حليق اللحية والرأس، ظننته شخصًا آخر، لكن نظرات عينيه مثل عين سلامة لا تتكرر في شخصين، شممت رائحة الشعر المحترق، كانت عباءته ملقاة بجانبه مرتديًا حلة حمراء مثل الدم؛ فظهر أقل من حجمه المعتاد وأصغر في العمر في هذه اللحظة.

_لماذا تأخرت يا عمر؟

سألني غاضبًا.

_لم أتأخر، تركت الحفل وأتيت.

جاوبته في استسلام وهدوء، وتذكرت أني لن أرى شيماء لفترة طويلة فحزنت.

أخذ كتابين من صندوقه الخشبي وألقاهما في حفرة النار، فعلٌ مثل هذا سبب كافٍ لقتله، فلم أعقب وابتلعت ريقي بصعوبة.

ظـل مطرقًـا للأرض يعبث بإبهامـه ويرسـم خطوطًـا وكلمات ثم يمحوها بكلتا يديه، كـدت أنسـى مـا جئت إليـه من شدة تركيزي مع ما يفعل، وبدأت أتحين الفرصة لقتله وضــعت يــدى اليمــني على مقبض الســكين وانتظــرت اللحظة المناسبة، رمقني بنظرة قاسية ثم سألني:

_ما عقاب القاتل يا عمر؟

_من قتل يقتل.

تنهد ثم قال:

- أجل ياولدي، من قتل يُقتل ولو بعد حين.

أحيانًا الموت يكون رحمة عن عذاب الضمير، قال متأثرًا.

_ وهل يمتلك القاتل ضمير؟

جاوبته ونسيت أني ما جئت إلى هنا الآن إلا لأكـون قـاتلًا، على الأقل إلى الآن أنا جبان ومنافق فقط.

_ هل الظرف يا ولدي؟

_ نعم معي.

أخذ ينظـر لي صـامتاً لا يحيـد نظـره عـني، ثم رسـم النجمة على الأرض ومال بجسده يقبلها، ثم قال:

_أنتظرت كثـيرا هـذ اليـوم الـذي تحمـل فيـه العهـد عـني وأتخلص من القيد الـذي يلتفت حـول رقبـتي طـوال هـذه السنين.

ثم وضع يـده على وجهـه باكيًـا. نظـرت إليـه متعجبـا من الضعف الذي سكنه في هذه اللحظات فسألته:

_ لماذا تبكي؟

_هذه أول مرة تستطيع فيها الـدموع التحـرر من قبضـتي لترى الحياة.

_ كنت أراك أطيب الناس ثم أكتشفت أنك أخبثهم.

_ حتي تتعلم أن لا تحكم علي أى إنسـان مـادام علي قيـد الحياة.
ثم صـمت وأطـرق ينظـر إلى الأرض شـاردًا.أخـذت أذكـر نفسي بما فعله مع حنين وتهديداته لي وعهده الـذي يريـد توريطي به، طردت ظل الشفقة الـتي تسـللت إلي قلـبي وأستدعيت كل حقدى وسخطي عليه ثم تفاجـأت بنفسـي أخرج السكين وأطعنه في صدره، فشهق شهقة عالية كاد قلبي يقفز من بين ضلوعي.
لم يبــدِ أي ردة فعــل أو دفــاع عن نفســه. وجدتــه مستسلمًا لقـدره يحـاول جاهـدًا نطـق كلمـات ولكـني لم أفهم ما يريد. فكرت وقتها أن ألقنه الشـهادة مثلمـا رأيت صـباحًا ولكـني لم أشـعر بنفسـي إلا وأنـا أطعنـه الثانيـة فالثالثة وتوالت طعناتي في حالة هيستريـة، شعرت وقتهـا أن هناك شيطانًا يتملكـني حـتى أنهكـني التعب، فتـوقفت لأجده قد انفجرت منه اثنتا عشرة عينا تفيض منها الدماء، التي استقبلتها الرمال بشراهة تروي بهـا ظمأهـا، جلسـت بجانبه أنظـر إليـه وينظـر إلي بعينيـه القاسـية. ظننت أنـه مازال على قيد الحيـاة فهممت أزيـد طعنـاتي لـه لكن لم يرمش له جفن، فتأكدت أنه مات، بل قُتلته. بأنفاس لاهثة رحت أدقق فيه النظـر، مـازالت عينـه تنظـر إليّ، مـددت يدى المرتعشة لأسدل جفنيـه لآخـر مـرة، اسـتندت بكفي بعدها على الأرض يتملكني البكاء، صرخت صرخة مكبوتـة عنـدما وجـدت السـكين مـازال في يـدي ملطخًـا بـدماء سـلامة، ألقيتـه على جسـده وتكـومت عنـد بـاب الـبيت مصعوقا بما فعلت، وضعت يدى على وجهي أخفي جسده عــني فتلطخ وجهي بدمائــه فــزاد كــرهي لــه وازدرائي لنفسي. بعد نوبتي العصبية بدأت أهدأ.
اســتجمعت أجــزائي المبعــثرة في أرض الخــوف وبصعوبة شديدة حملتني قدماي وسرت بخطى ثقيلـة إلى غرفة نومـه أحمـل في يـدي قبسًـا من نـار واليـد الأخـرى

تحمل الفأس التي كانت بجانب زجاجات الخمـر الفارغـة، وجدت الغرفـة واسـعة بعض الشـيء تضـم سـريرًا عتيقًـا وكرسـيًّا خشـبيًا وخزانـة ملابس صـغيرة، تقـدمت إلى السـرير وبـدأت تفكيكـه، فوجـدت أسـفله بعض الأثـاث القـديم والملابس الممزقـة فأبعـدتها جميعـا وبـدأت أنبش بالفأس في الأرض. وعلى عمق متر واحد وجدت جمجمـة إنسان، فأدركت أنها جمجمة والد سـلامة، لا أعلم من أين اكتسبت كل هذه القوة في الحفر، لكن الأمر لم يشـغلني حينها، خرجت من غرفة النوم للغرفـة الخارجيـة فوجـدت جثة سلامة أمامي فارتعدت من هيئته وكأني تناسـيت أني قتلتـه منـذ قليـل، يبـدو أن الرمـال لم تسـتلذ طعم دمائـه الخبيثـة فعافتـهُ؛ فوجدتـه غارقًـا في بحـر من الـدماء، أمسكته من تلابيب ثيابـه وبـدأت أجـره على الأرض جـرًّا، تـوقعت أني سـأجد صـعوبة لثقـل وزنـه وضـخامته، لكـني وجدتـه في وزن كيس من القطن، وصـلت بـه إلى قـبره ووضعته في الحفرة يؤنس أباه في وحدته، ثم بدأت أهيـل التراب على جسده حتى اختفى. نظـرت إلى القـبر كـأني أودع سلامة، لا أدرى كيف أشفقت عليه في هذه اللحظة، ارتميت بجسـدي على الـتراب وبـدأت أبكي متشـنجاً (سامحني يا عم سلامة)، لم أستطع كرهـه بالكليـة، كـان هناك جزء مـني يحبـه، اسـتعدت قسـوتي المصـطنعة، ثم أعـدت كـل شـيء كمـا كـان وأقمت السـرير مـرة أخـرى وبـدأت أنظـف المكـان وأمحـو آثـار جـره على الأرض، ثم خرجت إلى الغرفة الخارجية وأعدت الفأس بعـد تنظيفهـا وبـدأت أقلب الـتراب على الـدماء حـتى اختفى أثرهـا، ووجدت برميلًا ممتلئًا بالماء في دورة المياه فأخذت أرش الماء على التراب في البيت كله، جلست على كنبته كـأني إنسان آلي لا يحمل أي مشاعر إنسانية بدم بـارد لم يـؤثر فيه دم سـلامة. السـاعة الآن الثانيـة بعـد منتصـف الليـل، أظن أن أبي وأمي بدآ ملاحظة غيابي، قمت أنظف نفسي

من أثر ما فعلت وأغسل يدي ووجهي، أردت تجفيف يـدي فتذكرت كيس المناديل الـذي أعطـاه لي الرجـل الغـريب وأنا في طريقي إلى هنـا، مـددت يـدى لأخرجهـا فخـرجت معها رسالة سلامة ووصيته الـتي شـدد عليّ ألا أفتحهـا إلا بعد موته، أأفتحها الآن وأقرؤها أم أقذفها في حفـرة النـار كما فعل بكتبه وينتهي الأمـر؟ اقـترحت على نفسـي ذلـك ولكني فضلت أن أنصرف من هنا الآن بعد أن تـوهمت أن سـلامة ينـاديني من جديـد، فأسـرعت بـالخروج من بيتـه وتحرك المزلاج في يدى بسهولة وخفة أدهشتني، خـرجت من بيت ســلامة وســحبت البــاب ورائي وعنــدما أدرت ظهري سمعت صـوت المـزلاج يتحـرك ويغلـق البـاب من الداخل. كذبت أذني وبدأت السير في الشارع متوجهًا إلى بيـتي لكـني فضـلت أن أذهب إلى البحـر وألقي السـكين وأقــرأ رســالة ســلامة ثم أعــود إلى الــبيت مــع شــروق الشمس.

الفصل الثامن عشر

الرسالة..

خرجت من بيت سلامة متوجسًا، قطعت على نفسي عهدًا أن أتحلى بالهـدوء، كـان الطريـق خاليًـا من المـارة، فهدأت نفسي قليلًا منسجمًا رغمًـا عـني مـع هـدوء الليـل وصفاء السماء، وصلت إلى الطريق الأســفلتي ولم ألتفت إلى الخلـف، يفصـلني عن البحـر حـوالي ثلث سـاعة من السير، بعد مسـافة قليلـة وجدتـه على الجـانب الآخـر من الطريق يلوح لي بيده مبتسمًا من فوق كرسيه المتحـرك، رفعت يدي بصعوبة أرد عليه التحية متمتمًا بلعنات تصـيبه، شعرت بالسكين يهتز، لماذا لم أدفنه مـع سـلامة (عـاتبت نفسي) حاولت تثبيتـه قليلًا بتضـييق الحـزام على خصـري فاستقر ساكنًا. لا أعرف لمـاذا أطربـني إحسـاس بـالفرح

وقتها؟ نعم شعرت بالفخر بنفسي أني أنهيت مهمتي على أكمل وجه. كانت هناك هفوات صغيرة لكن النتيجة مرضية بالنسبة لأول جريمة قتل في حياتي، قابلني بعض الأشخاص في الطريق، لا أعلم لماذا يتفرسون في وجهي بكرهٍ هكذا؟ حتى البيوت وأحجار الرصيف وأبواب المحلات المغلقة كلها تنظر لي نظرة ازدراء، شعرت أن كل من يراني يقرأ على جبيني قاتل وجبان، فاحمر وجهي غضبًا، نعم أصبحت قاتلًا ولكني لم أعد جبانًا، أنا كنت جبانًا ولكن الله لم يخلقني جبانًا بمعنى أصح أصبحت جبانًا، كل شيء حولك يعلمك الجبن ويزرعه فيك وينميه، في البيت تتعلم الجبن أمام الأب والأم وإلا تعرضت للعقاب فاخترت أن أكون جبانًا لأنجو، لو تعلمت الفرق بين الاحترام والجبن لكان أفضل، في شارعي تعلمت الجبن؛ هذا أكبر منك سنًّا، هذا أقوى منك جسدًا هذا شقي، تجنبهم ابتعد عنهم، وفي النهاية أخاف منهم. لو تعلمت فن الحوار وكيفية اكتساب ود الناس ما تعلمت الجبن، في الدراسة بمراحلها المختلفة كانت العصا هي اللغة الأولى والأخيرة لمعظم المعلمين، إذا تكلمت بدون إذن تُضرب، إذا لم تنجز واجبك تُضرب، إذا نسيت أدواتك تضرب، إذا لم تحفظ دروسك تضرب، كل الطرق تؤدى إلى الضرب، قلت معظم المعلمين وليس جميعهم، أذكر أن معلمًا كان في أول عام في مهنة التدريس، لم يستعمل معنا الضرب لفترة ، لم نتعود على أسلوبه بسهولة، كان هناك من يستحق الضرب لأنه تعود عليه ليس أكثر لكن المعلم لم يضرب أحداً منا، بعد فترة بدأنا ننفذ ما يطلبه بهدوء، وننجز ما يطلبه احترامًا وحبًّا له ليس خوفًا من العصا، كان أسلوبه مختلفًا لكنه أعجبنا، باقي المدرسين لم يعجبهم ما يحدث لماذا لا تحمل العصا؟ كان السؤال المعتاد عندما يدخل أحدهم الفصل. أذكر مرة أننا ارتفع صوتنا في حصته كنا نتبارى في حل الأسئلة دخل أحد

المدرسين وأشهر سلاحه الخشبي في وجوهنا، فلـزم كـل واحد منا مكانه وساد الصمت، فوقف مختالًا بنفسه أمامنا ويؤنبـه بقولـه (أرأيت؟ هـذا هـو مفعـول الضـرب)ـ شـعر معلمنا بالخجـل وربمـا اتهمـوه بالفشـل، حـاول أن يكـون مثلهم وبدأ يستخدم العصا ولكنـه فشـل أيضـا لأنـه تحـدى طبيعتـه، بـل فشـل لأنـه تعلم الجبن أيضـا، كـان عليـه انـا يصبح جبانًا ليكسب احترامهم ويخسر احترامه لنفسه، أنــا لم أولد جبانًا، أنا أصبحت كذلك بطريقة ممنهجـة ورضـيت بجبـني عنـدما رأيت من يتحلى بالشـجاعة يضـرب ويهـان أمامنا ويصبح مثالًا سيئًا لا يحتذى به. يجب أن تكون وسط القطيع لتنال الرضا من الجميع، أذكر تلميذًا تمرد في مرة فأراد المعلم أن يعاقبه بشدةٍ أخذ يضربه بالعصا على يده مرة اثنتين عشرًا. كان يريد أن يشفي غليله برؤيـة دمـوع التلميذ وتوسـلاته، لكن هـذا لم يحـدث. كـان تلميـذ عنيـدًا تحمل فوق طاقتـه. أعلم أنـه كـان يتمـزق من الألم لكنـه تحمل وانتهى الدرس بهزيمة المعلم وتسليمه بعدم خنــوع التلميذ العنيد لسطوته. كم حسدت هذا التلميذ يومها على شـجاعته الـتي جلبت لـه الألم، لكـني أنـا عشـت حيـاتي مختفيًا داخل القطيع لم أشـرد عنـه، ولكن اليـوم هجـرني الجبن أصبحت ذئبًا ضاريًا يقتـل أسـدًا عجـوزًا ويدفنـه في عرينه ويعوي مختالا على قبره إنقاذًا لوليفته.

عدت من رحلتي دفاعًا عن نفسي، فتذكرت ياســين، أعلم أنه قلق جدًّا عليّ الآن، أعلم أنه يكاد تقتلـه الظنـون والأفكـار السـيئة، ومـاذا من الممكن أن يحـدث لي عنـد سلامة لأنـه يعلم أني جبـان، أنـا أحب ياسـين، لن أغضـب منه إذا حسبني جبانًا، الحب يجعلنا نتقبل مـا لا نتقبلـه من أحبابنا بصدر رحب، على يميني وجـدت محـل بقالـة يضـع لافتة مكتوبًا عليها (يوجد تليفون في المحل) فتوجهت إليه محافظًـا على هـدوئي، فوجـدت رجلًا في حـوالي السـتين من عمــره جالســا على كرســي مغمض العيــنين، يــداه

متشـابكتان فـوق بطنـه تعلـو وتهبـط مـع إيقـاع أنفاسـه، ويعزف بأنفه أجمل الألحان، فاقتربت منـه وأحـدثت بعض الجلبـة وسـعلت؛ فهب واقفـا، فابتسـمت لـه في هـدوء وطلبت اسـتعمال الهـاتف المقيـد بسلسـلة حديديـة في فترينة المحل، فهاتفت ياسين:

_ ألو.

_ عمر أين أنت؟

_ لم أعثر عليه، ذهبت إلى بيته وبحثت عنـد الشـجرة ولم أجده، انتظرته كثيرًا ولم يأتِ فانصرفت.

أخذت أسترسل في الكذب.

_ ولمـاذا لم تعـد إلى الـبيت؟ والـداك في غايـة القلـق لغيابك، عندما سألاني عنك قلت لهما إنك غـادرت لحزنـك على فراق شيماء.

_ سأهاتفهما الآن.

_ ماذا بك؟ أخبرني.

_ لا شيء يا صديقي أنا بخير، سـأتوجه إلى البحـر، أشـعر بالضيق.

_ أنا قادم إليك، أنا قلق جدًّا لأجلك.

_ لا تقلــق يــا ياســين، ســأجلس قليلًا هنــاك ثم أعــود للمنزل.

_ لا أريد أن أتطفل على وحـدتك، ولكن أرجـوك هـاتفني عندما تعود إلى منزلك.

_ وهو كذلك يا صديقي.

أغلقت الخـط مـع ياسـين وتنبهت إلى أن الرجـل قـد عـاد للنوم مجددًا، فأيقظته وطلبت مكالمة أخرى.

هاتفت أبي وأمي وأكـدت عليهمـا مـا قالـه ياسـين وعـدم القلق وتقدير حزني على فراق شيماء.

وبعـد مماطلـة طويلـة شـددت عليّ أمي ألا أتـأخر وأنهـا تنتظر عودتي .

دفعت للرجل المال مقابلًا لإجراء المكالمتين وزجاجة الماء التي أفرغتها في جوفي وهو ينظر لي كأنني أسكبها في الفراغ، ثم تركته يواصل أحلامه.. أكملت سيري وشعرت بأني مجهد جدًّا وأحتاج إلى الراحة، سنظل في طريق الحياة نركض حتى نقطة النهاية، لن نستطيع التوقف حتى لو ظننا أننا فقدنا القدرة على مواصلة الطريق، يجب أن نستمر.

لم يتبقَ إلا القليل، سأتخلص من السكين وأقرأ الرسالة ثم أعود إلى البيت لأرتاح وينتهي كل شيء بالنوم. عبرت الكورنيش الذي يكاد يخلو من السيارات العابرة في هذا الوقت، شعرت ببرد يتسلل إلى جسدي عندما واجهت البحر، كان نائمًا هو الآخر فهب منزعجا، ليس متعودًا أن يراني في هذا الوقت، كان الشاطئ تقريبًا خاليًا من البشر، توجهت إلى مكاني بين الصخور طالبًا الأمان وحمدت الله أن الشرطة لم تقابلني في الطريق وإلا كنت وقعت في مأزق، وربما من أول استجواب كنت اعترفت بكل شيء، نظرت يمينًا ويسارًا لأتأكد من عدم وجود أحد، أخرجت السكين وألقيته بسرعة في البحر الذي ابتلعه مستفهمًا عما حدث، نجوت من استجواب الشرطة لكني لم أنجُ من استجواب البحر ولن أستطيع أن أكذب عليه مثلما فعلت مع ياسين (سامحني يا صديقي) سردت على البحر كل ما حدث، صديقك الجبان لم يعد جبانًا، أصبح قاتلًا لينقذ أول فتاة عرفها في حياته وتسبب لها في الأذى. شعرت أن البحر يكاد يصعق مما سمعه، وماذا ستصير الأمور، كيف ستفلت بفعلتك؟ سألني، في الغد سيصبح كل شيء عاديًّا لم يشعر أحد بغياب سلامة، حتى أصحاب الأرض لا يرونه إلا مع بداية كل شهر لإعطائه راتبه، وعندما يثبت اختفاؤه سيتحدث الناس قليلًا ثم ينسونه كما نسوا اختفاء والده من قبل، الآن انتهى كل شيء وستعود حياتي كما كانت

عاديــة مســتقرة، لا أحلام مزعجــة ولا تهديــدات ســلامة، وتُشفى حنين وتكمل حياتنـا في سـعادة، تبقى الآن شـيء واحد وبعدها أُنهي هذه الفترة من حياتي، أشعلت سيجارة وأخذت أنظر إلى البحر وساد بيننا الصمت. ثم مددت يدي وأخرجت الظرف الأسود من جيبي فسقط كيس المناديل بجانبي ولمحت نجمة المغـربي مرسـومة على غلافـه فلم أفكر في الأمـر كأنـه صـدفة، فتركتـه على الأرض، فتحت الظرف، كـان القمـر في طـور الأحـدب الثـاني والإضـاءة جيدة تسمح بالقراءة، وجدت ورقة كبـيرة مكتوبـة بـالحبر الأزرق تفــوح منهــا رائحــة أنفــاس ســلامة وكــان نصــها كالتالي:

(عمر يا ولدي..

أعلم أنك تقرأ رسالتي الآن وأنا في عـداد المـوتى، يجب أن تعلم أني لم أحب شخصًا في حياتي يضاهي حـبي لـك أو ينازعك فيه، ولم أكن أعلم أني حـبي لـك سـيجلب لـك كل هذا القدر من المشكلات، حـاولت أن أجنبـك كـل هـذا ولكنه قدرك يا ولدي (تذكرت حينها جلسـاتي مـع سـلامة وسهراتي ومزاحي معه والحب الـذي كنت أكنـه لـه وحبـه وعطفه علىّ)

يجب أن تعلم أنـك الآن تحمـل عهـد المغـربي وتسـتطيع التحكم فيـه كمـا تشـاء لتحصـل علي الكـنز (اضـطربت وكـادت عينـاي تخرجـان من محجريهمـا، أي عهـد؟ انتهى العهد؛ لم أقتـل والـدى ولن أقتلـه، انتهي كـل شـئ مثلمـا انتهيت يا سـلامة)، أنـا علي علم بلقـاءك بالغجريـة والـدة حـنين وأنهـا أخبرتـك أن العهـد يسـتوجب أن تقـوم بقتـل والدك لتحصل عليه (ابتسمت ساخرًا) وأنت قتلت والــدك يا عمر وتستحق حمل العهد، أنـا والـدك يـا عمـر هـذا هـو السر الذي أحمله كالجمر بين ضلوعي طوال هذه السنين (كاد يجن جنوني لما قرأته، مـاذا يقـول؟! أنـا ابنـه؟ كيـف ومتي؟ هذه خدعة، كذبة تدعيها، أنت كـاذب لا محالـة، أنـا

لست ابنًا لك، أنا عمر رضوان ولست عمر سلامة) بعد انكماش الرسالة في يدى كدت أن أمزقها وألقيها في البحر ولكن لماذا أخاف من مواجهته؟ سأكمل القراءة ليتأكد لي كذبه.
أعلم أنك لا تصدقني وتتهمني بالكذب والجنون ولكن هذه هي الحقيقة شئت أم أبيت وتستطيع أن تتأكد من حديثي من والدتك أو الغجرية أو المغربي إن أردت ذلك (استشطت غضبًا، شعرت أني أهان في كرامتي وشرفي، كيف تتهم أمي بخيانة أبي، مستحيل أن يحدث ذلك، أنت مت وأمي لن أستطيع أن أسألها عن شيء كهذا، الموت أهون من ذلك، وأم حنين كاذبة مثلك والمغربي كيف أسأله).
بعد قطيعة رضوات ليّ زاد حقدي عليه حلولت أن أتقرب منه لكنه رفض زاد حقدي أكثر حتي ملئ قلبي وعقلي وأعمي بصري فنويت الإنتقام من رضوان بل نويت قتله ثم فكرت في إذلاله بما هو أشد من القتل.
ذات يوم كان والدك في مأمورية عمل تستغرق شهرين من السفر، فذهبت إلى منزلكم ليلا وأختبأت في غرفة والدة رضوان بعد أن كسرت قفلها وأنتظرت حتي الصباح فراقبت والدتك وهي تذهب بأختك شيماء إلي المدرسة وأثناء عودتها هاجمتها ودخلت بها إلي الحجرة كنت أنوى قتلها لأنتقم من والدك ولكني فعلت الأبشع من ذلك فاغتصبتها وهددتها ثم تركتها فاقدة للوعي
(ثارت ثورتي حينها وتساقطت دموعي إشفاقًا على أمي، تمنيت لو رجعت إلى بيت سلامة وأخرجته من قبره ومزقت جسده وطعنته مليون طعنة لأشفي غليلي منه)
تكتمت على الأمر عندما علمت بحمل والدتك فعلمت أن ما تحمله في رحمها من دمي لأن والدك أصابه العقم يوم أن رفض عهد المغربي فعاقبه بذلك، حاولت أمك الإنتحار أكثر من مرة لتتخلص من هذا العار ولكنها لم تفلح

،حاولت قتلك أكـثر من مـرة ولكن تمسـكك بالحيـاة كـان أقوى، أخذت أراقبك تكبر وتكبر أمام عيني، كم كنت أحلم بولد من صلبي فتحقق أمنيتي بك ، كم تمـنيت أن أضـمك إلي أحضاني وأخبرك بأنـك أبـني ولكـني لم أسـتطع فعـل ذلك، أكتفيت برعايتك من بعيد وحمايتك من أى شـر، لقـد كُتب عليّ أن تعيش أنت وحنين في منـأى عن عيـني وكن هذا كان أفضل لكما.تتذكر علاء زميلك في الجامعـة الـذي أعتدى عليك أمام الجميع بالضـرب والإهانـة أنـا من قتلتـه بسحرى إنتقامًا لك. سـامحني يـا عمـر سـامحني يـا بـني كنت مذنبًا وغلبني الشيطان، يكفى ما قاسيت من العذاب في حيـاتي صـدقني إني حلـولت أن أتقـرب من رضـوان ليسـامحني ولأحـاول أن أرد لـه مـا قـام بـه من رعايتـك وتربيتك ولكنـه رفض أن يتقبلـني مـرة أخـرى ، والآن أنت أنتقمت لرضـــوان ولوالـــداك بقتلي كمـــا خططت أنـــا والمغربي .

أحصل علي الكنز يا عمر، لأجلك ولأجل رضوان ووالـدتك وحنين، وأحذر من الغجرية ولا تثق بها، أنت الآن أقوى من ذي قبـل فلا تغرنـك قوتـك حـتى لا تنقلب عليـك لعنتهـا، احفظ العهد يا ولدي، سامح والدك سلامة يا عمر..

أنهيت قـراءة الرسـالة وانتهت معهـا حيـاتي، أنـا ابن سلامة ولست ابن رضوان، أنا ابن زنا ولست ولدًا شرعيًّا، أنا كنت منذ ساعات أنبش في الأرض لأواري سـوءة أبي؟ حتى الفتاة التي رأيت فيها حبي الأول أصبحت أخـتي؟ أنـا الآن على عهد مع الجن، أي حياة هـذه الـتي أطلبهـا؟ أين حياتي العادية التي كنت أنعم بها؟ أي قدر هـذا الـذي كُتب لي؟ كيف سأواجه الحياة الآن؟ كيف سأنظر في وجه أبي الذي لم يكن أبي، كيف أواجه أمي بعد كشف سرها، بعـد تعذيب السنين الـتي عاشـتها بسـببي؟ كيـف أواجـه حـنين وأقول لها إنـكِ أخـتي وإن والـدنا لم يمت من زمـان بعيـد كما قالوا لكِ، لا بـل كـان مـازال علي قيـد الحيـاة وقتلتـه

ودفنته بيدي هاتين. اي حياة هذه، أي قدر هذا؟ أنا لا أريـد هذه الحياة يارب، أنا لا أريدها، لن أبقى فيها لحظة واحدة بعد الآن. هذه الحياة فوق طاقتي فوق إرادتي. الأمر أشبه بأن يتخلى عنك كل شيء دفعـة واحـدة، أن تكـون يـونس قدرك أن يقذفوك في البحر لينجو الجميع.. لم يعد أمامي خيار ثـانٍ إلا أن أنهي حيـاتي بيـدي، سـأنتحر، كنت أتعجب من المنتحرين وأقول كيف لإنسـان أن يقتـل نفسـه مهمـا كانت الضغوطات التي يتعرض لهـا في حياتـه من المؤكـد أنـه كـان يسـتطيع تـدارك هـذا القـرار بـأي شـيء آخـر، يستطيع أن يبتعد عن كل ما يؤرق حياته ويدفعـه للانتحـار. دائما ما كنت أرى أن هناك فرصـة أخـرى في مكـان آخـر تستطيع أن تنقذ حياة الإنسـان، كيـف يسـتطيع الشـيطان غـرس اليـأس في قلـوب النـاس إلى هـذه الدرجـة؟ كنت أرفض الانتحار مهما كانت الأسباب، والآن أنا أقـدم عليـه، فلمـاذا لا أنصـح نفسـي كمـا تخيلت أني قـادر على نصـح غيري؟ ولكني لا أمل لي حقـا؛ أين سـأهرب؟ وإن هـربت من كل ما يذكرني بالماضـي فكيـف سـأهرب من نفسـي المعذبة، من وجهي الـذي يحمـل ملامح سـلامة، من يـدى الــتي تلطخت بدمائــه، لابــد أن أنتحــر، هــذا كلــه فــوق احتمالي. سامحيني يا أمي، أعلم أن هذا سيسبب لكِ أذى كثيرًا لكن هذا أهون مما قد يكون لو استمرت حياتي أكثر من ذلــك، حــاولتِ قتــل نفســك وقتلي لتجنبيــني هــذه المأساة، لكنك فشلتِ، وأنا اليوم سأحقق مـا فشـلتِ بـه، ابنــك كبِـر يـا أمي ويسـتطيع الآن إنهـاء هـذه السـخافة الكبيرة، أحرقت الرسـالة بعـد أن أحـرقت قلـبي، بأصـابع مرتعشة وجسد ينتفض ودموع تنهمر وحياة تنهدم، تقدمت وألقيت نفسـي دون تفكـيرٍ في ميـاه البحـر، أرجـوك يـا صديقي القديم أنهِ حياتي، أسدِ لي هذا المعروف وابتلعني في قاعك، أنت الشيء الحقيقي الوحيد الـذي عرفتـه في هذه الحياة، حياة مزيفة كاذبة كل ما فيها مزيـف وكـاذب،

احتضني يا صديقي، أرحني مما أنا فيه أتوسل إليــك، كنت أغوص في الماء دون أي مقاومة، شعرت بجسدي تغمــره المـاء ثم تـذوقت ملوحتـه في فمي ثم تسـلل إلى جـوفي كما تسلل كل هذا الشر إلى حياتي وغبت عن الوعي.

الفصل التاسع عشر

العودة..

شعرت بنفسي على قيد الحياة مرة أخرى، صوت أمي وأبي وياسين وحنين وأمها، أصواتهم خافتة لكني أسمعها وأميزها، توقعت أني فارقت الحياة وأنا الآن في قبري وهم يتجمعون حولي يودعونني. ألم فظيع في رأسي وأشعر بأجسام غريبة تنغرس في جسدى، لم يفصلني عن قطع الشك باليقين إلا أن أفتح عيني وأرى أين أنا، فتحتهما بقدر صغير وبمكر كبير يسمح لي برؤية ما حولي، أرقد على سرير بفراش أبيض، أمي تجلس على كرسي على يميني ممسكة بيدي وتبكي، أبي يجلس على يساري بحزن يحتل ملامحه المجهدة، ياسين في ركن الغرفة واقف في شرود، حنين وأمها جالستان بجانب باب الغرفة صامتتين. نعم أنا على قيد الحياة، لم أمت، أي تعاسة التي تنتظر عودتي لتطبق على مصيري، كان جميعهم متفقين أن يخفوا عنك الحقيقة، لكنهم أخبروك بها بنسب متفاوتة.

كيف سأعيش حياتي الآن بينهم؟ هل أكافئ هذا الرجل الذى ربى ابن غريمه في بيته وحماه في كنفه وأقول له إني لست ابنك؟ هل يستحق مني ذلك؟ وأمي لا أستطيع حتى التفكير في أمرها، وحنين كيف ستستوعب أني أخوها من الأب ولا يصح أن أكون أكثر من ذلك؟ وعم سلامة أقصد سلامة بل أبي، هل سألعنه أم سأطلب له الرحمة؟ وهل يجوز أن أترحم على شخص قتلته؟. كانت رغبتي في الإفصاح عن كل شيء دفعة واحدة تجبرني على الصمت مدى الحياة، سأصمت، نعم سأصمت، هذا ما يستوجب فعله. لقد عشت حياتي صامتًا أفرح وأحزن وأغضب وأحب وأكره وأنا صامت. كان الضجيج في صدري قادرًا على إزعاج ألف مدينة ولكني بقيت صامتًا،

لن يضـرني ذلـك، سأسـتمر في صـمتي لتسـتمر الحيـاة، سأعيش بينهم كمـا كنت قبـل ذلـك ولن يتغـير شـيء ولن أنطق بكلمة واحدة ممـا عرفتـه، أصـبحت أحمـل أسـرارًا تنأى الجبال عن تحملها لكنه قدرى، حـاولت الهـروب منـه لكن صـديقي القـديم خـانني ولم يغرقـني، من أنقـذني؟ وكيف نجوت؟ ويا ليتني ما نجـوت، هـل هـو الـذي فعلهـا؟ نسيت أمـره، أراه يقطـع الغرفـة الآن ذهابًـا وإيابًـا واضـعًا يديه متشابكتين خلف ظهره، ونجمته الملعونة تزين ظهـر عباءته بلونها الأسود الـذي يشـبه ليلـة شـتوية غـاب عنهـا القمر.

لم أظل متظاهرًا بالنوم مدى الحيـاة مـع أني تمـنيت ذلك، فشلت محاولتي في الهـرب ولم يعـد أمـامي سـوى مواجهة مصيري المحتوم، توالت الأيام في المشـفى وأنـا لا أتحدث كثيرًا، بعض كلمات معدودة وأجوبـة مكـررة عن أسئلة من حـولي، تقـرر خـروجي وعـدت إلى الـبيت بعـد غياب أسبوع، كانت عيـون أبي وأمي تلهبـني بالأسـئلة أين كنت؟ وماذا حدث؟

لم ينقطع ياسين عن زيارتي في المشفى ورافقني حتى دخلنا غرفتي كتفي يلاصق كتفه، مع عودتي لغرفـتي تذكرت عنـدما خـرجت منهـا أحمـل سـكينًا تحت ملابسـي لقتل سلامة والآن أعـود أحمـل سـكينًا في قلـبي سـيظل يؤلمني طوال العمر، اختفي سـلامة من حيـاتي بلا رجعـة، ورحلت شيماء مع زوجها، وأصبحت أنا ابنًا قاتلًا لأبيـه، كـل هـذا حـدث وأذكـر بـه نفسـي كـل يـوم ولكـني مـازلت لا أستوعب الأمر.

فكرت كثيرًا في رد فعل من حولي، كيف سيفسرون الأمر، هل سـتنجح حيلـتي في إقنـاعهم أني تـركت زفـاف شـيماء لحـزني على فراقهـا؟ وأني ذهبت للجلـوس على البحـــر فأصـــابني دوار وســـقطت من فـــوق الصـــخور، سيصدقون، ليس لقوة حيلـتي لكن لحبهم لي سـيظهرون

تصديقهم لأكاذيبي، فتصـديق الأكـاذيب من مسـاوئ الحب ليستمر..

وفي زيارة من زيـارات ياسـين طلبت منـه أن نخـرج قليلا، فوافق على الفور وتوجهنا إلى المقهى الـذي نجلس فيه دائما، ثم سألني:

_ماذا حدث يا عمر؟

_لم يحدث شيء.

_ولماذا حاولت الانتحار مادام شيء لم يحدث؟

خاطبته بحدة:

_ ومن قـال إني حـاولت الانتحـار؟ لقـد فقـدت الـوعي وسقطت في البحر. هذا كل ما حدث.

_ لماذا تكذب يـا صـديقي؟ بعـد أن أنهيت معـك المكالمـة يوم الحادثة بقيت مستيقظًا قلقًـا عليـك، فـاقترحت هـاجر التي وجدتها في منزلي عقب عودتي من عُرس شيماء أن نـذهب للبحث عنـك، وعنـدما وصـلت إلى البحـر وجـدت جماعة من الناس متحلقين حولـك وأخـبروني بأنـك ألقيت نفسك في الماء وكدت تغرق فأنقـذوك، ثم ذهبت بـك أنـا وهاجر إلى المشفى.

_ لماذا فعلت ذلك يا صديقي؟ لماذا لم تتركيني أنهي حياتي وأرتـاح من هـذا العنـاء يـا هـاجر.. خـاطبت نفسـي وجـاوبت ياسـين بصـمتي ونظـراتي الخائفـة الهاربـة من مواجهة الحقيقة.

_ أين سلامة يا عمر؟

_ لا أعلم.

_ اختفي سلامة من يوم لقائك معه.

_ وما صلتي بذلك، ليست المرة الأولى التي يختفي فيها.

قال بصوت يحمل بين طياته توسلًا بصداقة السنين:

_ لماذا تخفي عني الحقيقة؟

شرد عقلي وقتها وأنا أحدق في الفـراغ وأفكـر مـاذا سأقول له، لم أخفِ عنه أي صغيرة ولا كبـيرة عن حيـاتي

قبـل ذلـك، تنهـدت مثـل بركـان يوشـك على الانفجـار ثم اتخذت قراري بمصارحته بقتلي لسلامة ودفنـه في منزلـه وأني حاولت الانتحار بسبب ذلك، شعرت وقتها أني ألقيت بنصـف ثقلي على كاهلـه. كـانت نظراتـه المتضـاربة مثـل الأمـواج تشـعرني بالـذنب على مشـاركته حـزني، تـركت ياسـين يعيش لحظـات دهشـته وجنونـه ممـا سـمع مـني وحـدثت نفسـي مـاذا كنت تفعـل يـا صـديقي لـو أخبرتـك بالنصف الآخر من ألمي، بعد فترة هدأ ياسين مضطرًا بعد ملاحظة أحد الجالسين حولنا ما يحدث ثم قال:

_ حنين أصبحت بخير وزارتك في المشفى أكثر من مـرة، وتهاتفني يوميًا للاطمئنان عليك، وتريد أن تحدثك.

_أخبرها أني ما زلت مريضًا.

_ لماذا؟

_ أحتاج بعض الوقت لأعود لطبيعتي.

نظرت إلى ياسين فشعرت بأن الخوف تسرب إليه مـني، هل يعاملني صديقي على أني قاتل بعد الآن؟

_ ياسين، أريد أن أعود إلى البيت الآن.

عدت إلى البيت متثاقلا، وجدت أبي وأمي في غرفـة الاسـتقبال، دخلت غرفـتي تحت نظراتهمـا المشـفقة، أغلقت الباب في هـدوء وبـدلت ملابسـي وانكمشـت على فراشي ألملم ما بقي مني، شعرت بالقلق عندما تـذكرت أن والدة حنين ستدرك أني تخلصت من سلامة ولن تقتنـع بمراوغتي لها مثلما حـدث مـع ياسـين، ياسـين اضـطررت إلى مصـارحتك بجـزء من الحقيقـة، لم أنـدم على قتلي لسلامة إلا عندما لمحت نظرات الخوف مني في عيونـك، تناولت حبوبي المنومـة الـتي وجـدت فيهـا أسـرع طريقـة لاستدعاء النوم بعد أن عزف جسدي عنه كإنسان طبيعي.

الفصل العشرون

زيارة الشيطانة..

استيقظت من نومي مع شروق الشمس ومثل أي مجرم يحن إلى مكان جريمته الأولى خطر في بالي أن أذهب إلى بيت سلامة وأتفقده ، توجهت إلى هناك في هدوء وحذر شديد، غابت عن البيت هيبته وغموضه المعهود، أصبح يشبه الأطلال بما يحمله من ذكريات مؤلمة، بل في الحقيقة رأيته قبرًا لأقوام بائدة، أخذت أدور حوله كأني أنتظر إشارة أو نداء للدخول، كان باب البيت يرتعد وجدرانه ترمقني بخوف شديد بعد ما رأت قسوتي على سيد البيت ومالكهم، لم أتمالك الشجاعة الكافية للاقتراب ففضلت الرجوع إلى منزلي لأجد أبي وأمي يتناولان وجبة الفطور، دخلت غرفتي ولكني عدلت عن رأي وقررت الخروج لتناول الفطور معهما، جلست بينهما في هدوء ووداعة، لم يعقبا على خروجي مرة ثانية بل رحبا بي بشدة، تذكرت شيماء فسألت عن أحوالها فعرفت أنهم لم يقصوا عليها شيئًا مما حدث فشكرت لهم ذلك.

أكملت فطوري بذهن شارد ونظرات خافتة ثم دخلت غرفة شيماء، رحت أتجول بيدي بين لوحاتها وألوانها وأمشط شعر دميتها المفضلة وأتخيلها وهي تنهرني وتضربني بوسادتها، قضيت ساعة مع طيف شيماء ثم عدت للواقع على رنين الهاتف، فخرجت بسرعة على أمل أن تكون مكالمة منها، وجدت أمي تطمئن أحدًا علي حالتي وتشير إليّ بحركات من شفاهها ترجمتها إلى حنين فهززت لها رأسي بالموافقة، فأخبرتها أمي أني قادم لأتحدث معها، كانت مكالمتي معها يسودها الفتور من جانبي أما هي ففرحت بسماع صوتي، ودُهشت من برودة ردودي ولكنها عللت ذلك بما أعانيه ونوهت بزيارتي في

المنزل قريبا بصحبة والدتها، أغلقت المكالمة مع حنين وتوجهت لأمي وسألتها عن مدى معرفتها بوالدة حنين، فجاوبتني بأنها تعرفت عليها في المشفى، وحاولت بأسئلة ماكرة أن أعرف هل تعرفت إليها أو أن هناك أي معرفة سابقة لها أو لأبي؟ لكن كل ردود أمي أكدت أنها تراها لأول مرة وكذلك أبي، أنا أعلم أن سلامة كان لا يسمح لها بالخروج من بيته أو مخالطة أحد ولكني الآن أصبحت أشك في كل شيء.

أطمأن قلبي قليلا بعدم ثرثرة والدة حنين بشيء لأمي وأبي بسابق زواجها من سلامة، أما شعوري تجاه حنين فلا أجد له تفسيرًا الآن، هي تراني صديقًا وأنا كنت أتمناها حبيبة ونحن في الحقيقة أخوة من أب قتلته بيدي، لم يغلب عليّ شعور بعينه تجاهها، فلا أنا أنسى بوادر حبها وتعلقي بها ولا أستطيع أن أتأقلم الآن على أنها أختي ما بين عشية وضحاها. كل الأمور تحتاج إلى وقت لكي تتضح وتفسر نفسها بنفسها، ولكني سأحاول الابتعاد عنها قليلًا حتى أساعد نفسي على نسيان ما فعلته من أجلها.

مع غروب الشمس حضر ياسين وجلسنا في غرفتي صامتين لفترة طويلة ثم تذكرت شيئًا فباغته:

_ أين هاجر؟

_ لقد رحلت بمجرد اطمئنانها عليك.

تنهدت في استسلام لحديث ياسين الذي أخذ يقص عليّ نظراته لسارة يوم زفاف شيماء، وحدثني عن حنين أكثر من مرة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث من هنا ومن هناك لساعات لا يقاطعنا سوى مشروبات أمي من وقت لآخر، وشعرت في هذا اليوم أني أستطيع العودة إلى حياتي الطبيعية وأنسى بل أتناسي ما حدث من تطورات في حياتي في الفترة السابقة.

في اليوم التالي جلست مع أبي وأمي نشاهد التلفاز في غرفة الجلوس، لاحظا تغير معاملتي لهما وشدة

اقـترابي منهمـا، وكيـف لا أقـترب؟ فهـذا الرجـل الـذي استضافني في بيته وأغدقني بنعمه ليل نهار وأنا لست ابنًا له يجب أن أعامله كما يستحق من تكـريم وإجلال عرفانًـا بجميله عليّ، وهذه المرأة التي أفسدتُ حياتها منذ حملهـا بي وهي تنـادى ربهـا يـا ليتـني مت قبـل هـذا وكنت نسـيًا منسـيًّا، كيـف أعوضـها عن كـل هـذا الألم الـذي عانتـه بسببي؟

سأقضـي عمـري كلـه تحت أقـدامهما محـاولا قـدر استطاعتي رد جزء من أفضـالهما عليّ. أثنـاء جلسـتنا رن جرس الهاتف لأجدها تناديني بصوتها الذي رسم الابتسامة على وجهي، حدثت شيماء وحدثتني وحـدثتها وحـدثتها ولم أمل من حديثي معها وأمي تجذب السماعة من يـدي وأنـا أتشـبث بهـا كالأطفـال حـتى نجحت في انتزاعهـا مـني بصعوبة، وأبي يشاهدنا مبتسمًا تارة ومهـددًا بحرماننـا من المكالمة تارة أخرى، للحظـات عـاد منـاخ أسـرتنا القـديم الـذي افتقـدناه بـزواج شـيماء والفـراغ الـذي تركتـه في المنزل وفي روحي، انتهت المكالمة بـدموع أمي الـتي لم أسخر منها هذه المرة واحتضـنتها لأطيب خاطرهـا محـاولا تخفيـف ألم فـراق شـيماء عليهـا، ثم شـاركتها في إعـداد وجبة الغداء ثم تناولهـا، وبعـدها أخـبرت أبي بعـدم ذهـابي لأداء الامتحانات هذا العام بسبب ظروفي الصـحية وعـدم استعدادي، فأدهشني بموافقته على الأمر دون أي مشكلة أو اختلاف بيني وبينه على العكس مما أتوقع.

بعد ساعة دخلت أمي إلى غرفـتي تخـبرني أن حـنين وأمها قادمتان في الطريق إلى منزلنا لزيارتنا والاطمئنـان على حـالتي، أخفيت ضـجري من الزيـارة وشـرعت أعـد نفسي لاستقبالهما، وبعد مدة بسـيطة كنـا أنـا وأمي وأبي وحـنين ووالـدتها نجلس معًـا في منزلنـا، قضـيت معظم الجلسة صـامتًا أهـرب بنظـراتي من ملاحقـة عيـني حـنين التي لاحظت ارتباكي واصفرار وجهي وشرودي وما شـابه

ذلك من جراء ما عـانيت في الفـترة السـابقة، كـانت الأم تتجـاهلني متعمـدة حـتى كـان موعـد انصـرافهما رمقتـني بنظــرة مــاكرة لم أســتطع تفســيرها إلا بقبضــة قلــبي وشـعوري بـاقتراب مأسـاة جديـدة في حيـاتي وخصوصـا عندما فاجأتني بقولهـا (أتمـنى أن تكـون بخـير في أقـرب وقت، أريـد أن أتحـدث معـك في أمـر في غايـة الأهميـة) غامزة بعينيها في غفلة من الآخرين. خـرجت حـنين وأمهـا ودخل الشك إلى قلبي وعقلي، ماذا تقصد؟ وماذا تريد؟

لم أخش أن ينكشف أمرى إلا بعد هذه الزيارة؛ فهذه الغجرية هي الوحيدة التي تعرف حقيقتي. ولكن ما سـبب خـوفي منهـا؟ أنـا فعلت مـا فعلت لأنقـذ ابنتهـا من سـحر سـلامة، ومـا الاسـتفادة الـتي سـتعود عليهـا من تهديـدي وكشف أمري؟ لماذا تريد مقابلتي؟

لم تنفع محاولاتي لصـرف تفكـيري عن هـذا الموضـوع أو التغافل عنه ولجأت إلى حبوبي المنومة لتريحني من عنـاء التفكير.

الفصل الواحد والعشرون

محاولة التأقلم..

قضيت الأيام في محاولة الاستشفاء من ذكرى ما حدث، وربما أفلحت في ذلك نسـبيًّا بقـربي من أبي وأمي وحنانهما من بعد يوم الحادثة، كانا يشعران بما أمر به من اضطراب ومعاناة وتجنبا أن يستفسـرا عمـا أنـا فيـه، كانـا مقتنعين بمحاولـة انتحـاري، فقـدما لي مـا اسـتطاعا من محبة ومودة دون مجاهرتي بأي شيء عن شكوكهما، ومع دخول الصيف وتبدل المناخ تبدل حالي إلى الأفضـل قليلا، ولكـني تعجبت من توقـف الأحلام في منـامي معللًا ذلـك بتــأثير الحبــوب المنومــة ولكــني كنت ســعيدًا بــالأمر،

استمتعت أيضا بـالقوة الغريبـة الـتي سـكنت جسـدي من يوم الحادثة وكنت أخشى منها أيضا..

اشـتقت كثـيرًا إلى البحـر وإلى مكـاني المفضـل بين الصخور، فقررت زيارته، ذهبت إلى هنـاك ولكـني وجـدت المكان يعج بالزوار فشعرت بالغربة بينهم وأن البحـر رغم سـعادته برؤيـتي مـرة ثانيـة إلا أنـه يـأمرني بالـذهاب الآن والعودة في وقت آخر لشدة انشغاله بـالترحيب بضـيوفه، كم أكره الصيف .

لم يكن عندي رغبـة في الرجـوع إلى الـبيت فقـررت الذهاب إلي ياسين في محـل عملـه وقضـاء الـوقت معـه حتى موعد انصرافه ونعود معًا، ركبت سيارة أجرة وذهبت إلى هناك، وعند وصولي لمحت حنين تخرج من الكافيتريـا التي يعمل بها ياسين، لم ترني وأنا تعمدت ذلـك وتـأخرت قليلا في الـدخول حـتى لا يظن ياسـين أني رأيتهـا، دخلت إلى ياسـين الـذي غمـرني بترحيبـه هـو وزملاؤه الـذين يعرفونـني جيـدًا واستضـافني وقضـى الـوقت بين عملـه وبيـني في سـعادة بزيـارتي وتـوجس من أن أكـون رأيت حنين وهي منصرفة من الكافيتريا، عـدنا في المسـاء بعـد أن قررنا أن نقضي السهرة في بيتي.

دخلت المـنزل فقـابلتني أمي بقلقهـا الـذي لا ينتهي، فحكيت لها تفاصيل يومي فسعدت بخروجي بعـد شـهرين والنصف من الحادثة ، وعـودتي إلى حيـاتي الطبيعيـة بعـد سيل من المدح في ياسين وما يقدمه من أجلي ودعواتهـا بأن تدوم صـداقتنا إلى آخـر العمـر، ثم ذهبت إلى المطبخ لتـؤدي مهمتهـا المقدسـة في إعـداد وجبـة الغـداء الـذي تناولناه بعد مـدة قليلـة أنـا وهي وأبي الـذي اكتفي بـردي عنـدما سـألني أين كنت طيلـة اليـوم عنـدما ذكـرت في كلامي اسم ياسين، ولم يعقب بأي شيء يضايقني.

دخلت إلى غرفـتي وسـبحت في بحـور أفكـاري، وتساءلت لماذا أخفى عني ياسين أن حنين زارتـه اليـوم؟

وقلت لنفسي لمَ لا؟ حنين أختي ولن أجد لها زوجًا خيرًا من ياسين، وياسين صديقي ويعلم عني كل صغيرة وكبيرة وأعتقد أن حنين قادرة على أن تمحو من ذاكرته ما حدث بينه وبين سارة وأنه سيجد فيها الحب الذي يأمله. قطع صوت ياسين أفكاري عندما دخل إلى البيت وطرق على باب غرفتي.

_ تفضل بالدخول يا ياسين.

_ كيف حالك الآن يا صديقي؟

_ أحمد الله، في أحسن حال.

_ وستتحسن جدًّا مع مرور الأيام، الزمان سيداوي ما أفسدته الليالي.

_ أتمني ذلك عاجلًا.

_ ألم تتواصل مع حنين مؤخرًا؟

_ لا، لم أحدثها منذ فترة طويلة.

_ لماذا؟

_ أظنني سأكون في أفضل حال وأنا بعيد عنها هذه الفترة.

_ أتقتل سلامة من أجلها ثم تبتعد عنها، كيف تفسر هذا؟

_حنين صديقة لا أكثر وأنا قمت بواجبي نحوها لأني من ورطها في الأمر من البداية وحاولت أن أنقذها من قدرى المحتوم.

_صديقة؟ أظنك معجبًا بها، أو تحبها؟

_لا لا، لم تتطور الأمور إلى هذا الحد، ولا أظنها ستتطور عن ذلك، أنا أقدرها وأحترمها كصديقة فقط دون مشاعر إضافية.

أطرق ياسين يفكر، وأكاد أرى الكلمات من تحت جلده تدور في عقله تبحث عن مخرج، فباغته قائلا:

_ نسيت أن أخبرك أني رأيت حنين وهي تغادر المطعم، وتعجبت أنك لم تخبرني بزيارتها لك.

صمت ياسين وزاد التوتر عليه ثم بصوتٍ مهزوز تكلم:

_ خشيت أن تغضب مني.
_ ولماذا أغضب منك؟
_ كنت أظن أنك تحبها.
_ وبما أني صارحتك بحقيقة مشاعري نحوها، أما آن وقت مصارحتك لي بما تخفيه عني؟
تنهد ياسين من أعماق فؤاده ثم قال:
_في فترة مرضك جمعتني بحنين الظروف وبدأنا نرى بعضنا البعض لفترات طويلة، ومما تحدثنا فيه أنها تتخذك صديقًا وأخًا لها، بدأنا نتحدث كثيرا وشعرت بانجذاب متبادل بيني وبينها، ولكني ابتعدت عنها عندما تخيلت أنك من المحتمل أن تكون وضعت خططًا للارتباط بها أو تحبها.
_ هل مال قلبك لها يا ياسين؟
_ نعم.
_ إذن لا تضيع الفرصة وتقدم لخطبتها في أقرب وقت.
_ عمر، أنت تعلم مكانتك في قلبي، فهل صارحتني؟
_ بماذا؟
_ هل هذا حقا شعورك تجاه حنين؟
_ وهل هناك ما يدفعني إلى الارتباط بأختي؟
(لم أغر من كلام ياسين على أختي حنين كغيرتي على شيماء، لم أستطع أن أكون لها أخًا بمعنى الكلمة إلى هذه اللحظة).
_ للمرة الأخيرة أؤكد لك، حنين في مكانة أختي ولن أجد لها زوجًا خيرًا منك، على الأقل سأجد من ينقذني من والدتها إذا أرادت إيذائي.
_ وكيف تستطيع إيذاءك؟
_ لأنها تعلم جيدًا أن شفاء حنين ما كان يتم إلا بقتل سلامة.
_ حتى إن كان ما قلته صحيحًا، فهي لن تفكر في أن تضرك بعد أن أنقذت ابنتها من الموت.

_ قلبي غير مطمئن.
_ اطمئن، فهي مشغولة في مرض عم صلاح زوجها.
حمدت الله في سرى لانشغالها عني واستغفرته لفرحي بمرض زوجها وأمنياتي أن يستمر مرضه لتظل مشغولة عني.
ربت ياسين على كتفي وطمأنني بأنه سيظل جانبي إلى آخر العمر ولن يتركني أواجه الحياة وحدي مهما حدث، ثم انصرف والفرحة تزين وجهه بعد أن أعطيته الضوء الأخضر لميلاد حبه الجديد بعد محاولاته لإجهاضه وإضافة ضحية جديدة في سجل جرائمي.
انصب كل تفكيري بعد ذلك في العهد الذي ورطني فيه سلامة عندما قتلته، لم يظهر المغربي ولم يزرني في أحلامي وكأن الموضوع من الأساس لم يكن، إلى أن جاء اليوم الذي دعاني فيه أبي إلي الجلوس معه وشعرت بنشوة الفرحة في حديثه قائلا:
_شيماء أختك حامل يا عمر.
تهلل وجهي فرحًا.
_ وعندي لك خبر آخر سيزيد من سعادتك.
_ ما هو يا أبي؟
_ غرفة جدك، سأحقق لك رغبتك ونزورها معا.
بالفعل نجح أبي في إسعادي بشدة واصطحبني إلى الغرفة بعد أن شدد علي بعدم إخبار أحد بما سأراه فيها، أو يحدثني عنه، اصطحبني أبي معه ونزلنا الدرج ببطء على إيقاع خطواته، حتى وصلنا الدور الأرضي ومد أبي يده في جيب بنطاله وأخرج مفتاح القفل، وأنا أشاهده في صمت أفكر فيما تركه لنا جدي في هذه الحجرة، أضاء أبي المصباح الكهربائي فظهرت خباياها، غرفة واسعة الأركان جدرانها مزينة بلوحات متنوعة تضم مناظر طبيعية، وأخرى عبث بها الزمان وضيع ملامحها، فرشها عبارة عن كنبة تشبه التي في شقتنا مفروشة بفرش

قديم الصنع والطراز، في أحد أركانها توجد آلة لتشغيل الأسطوانات القديمة أو ما كانوا يسمونه (فونغراف)، وعلى الحائط الآخر يوجد مكتب خشبي تلتف حوله ثلاثة كراسي على طراز الأرابيسك، وقفت أدقق النظر في كل شيء وأتحسس بيدي ما تقع عيني عليه وأبي يراقبني صامتًا ثم قال:
_هذه الأشياء إرث أجدادك يا عمر.
ثم توجه إلى الكنبة وأزاح عنها فراشها ليظهر قفل آخر فيفتحه أبي ثم ناداني:
_وهذه أهم ما في الغرفة؟
_ما هذه الخزانة، لا تخبرني أنها تحوى أموالًا وجواهر؟
_ بل تحوى ما هو أغلى من الجواهر وأكثر قيمة من المال.
ثم فتح الغطاء الخشبي لتظهر مجموعة كبيرة من الكتب:
_ تفضل يا بني هذه هي مفاتيح الغرفة وخزانة الكتب، هي من الآن ملك لك، فحافظ عليها ولا تهملها. وبالمناسبة مشغل الأسطوانات بحالة جيدة ويعمل، تستطيع أن تستخدمه.
_شكرا لك يا أبي.
_لا تشكرني، كن سعيدًا يا بني فهذا ما نريد.
صعدنا أنا وأبي تغمرني الفرحة بحصولي على شيء تمنيته كثيرا في طفولتي وأخيرًا حصلت عليه، كانت خطوة كبيرة قطعها أبي للاقتراب مني وكسر الحواجز بيننا، أبي أصبح أبي بعد أن عرفت أنه ليس أبي..

الفصل الثاني والعشرون

حب ياسين

بعد هذا اليوم أصبحت غرفة جدي هي الملاذ الأمن الذي ألجأ إليه يوميًّا، وأقضي فيها معظم أوقاتي، كانت الكتب قيمة ومتنوعة بين سياسة وفلسفة وعلوم دينية

وقصص، وكتب شائقة تتحدث عن حل الرموز وأسرار الكنوز، علمت منها على سبيل المثال أن هناك من فك رموز الفراعنة قبل شامبليون بكثير، وصححت كثيرًا من المعلومات المغلوطة التي تعلمناها في مناهجنا، قرأت كثيرًا فيها رغم أنني لم أفهم كل ما قرأته، لكنني كنت مستمتعًا بما أفعل وبما أحصل عليه من معرفة.

مرت الأيام سريعًا وحل الخريف وبدأت تتساقط أوراق الشجرة العتيقة، أيام عادية، لا أحداث تذكر غير العكوف على القراءة في غرفة جدى، لم تنقطع علاقتي بحنين، كنت أتحدث معها على فترات بعيدة للاطمئنان عليها وعلى صحة عم صلاح حتى أخبرني ياسين بوفاته.

_ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

_ يجب أن نذهب لأداء واجب العزاء يا بني.

كنت متوترًا من هذا اللقاء، تحاشيت لقاء والدة حنين لفترة طويلة، لكن الأمر مفروض عليّ الآن ولابد من اللقاء، من المخزي أن أترك حنين بمفردها في هذه الظروف، ذهبنا في المساء وقدمنا واجب العزاء في جو من الحزن الشديد والبكاء المتواصل من حنين ووالدتها حزنا على عم صلاح، الرجل الذي أوى حنين وأمها وأغدقهم بعطفه ورعايته طوال حياته.

بعد شهرين تقريبا نعمت فيهما براحة البال والطمأنينة بعض الشيء، أتى ياسين يطلبني في أمر ضروري وأخبرني أنه عقد العزم على التقدم لخِطبة حنين، فسعدت جدا وهنأته، ولكنه أخبرني أن حنين تريد أن تعلم إذا كنت موافقًا على هذه الخِطبة أم لا.

لم أضيع أي وقت واتصلت بحنين بعد مغادرة ياسين مباشرةً، وطلبت منها اللقاء في الجامعة لأمر ضروري، وفي الموعد المحدد تقابلنا وتوجهنا لمكان جلوسنا القديم، شعرت حين رأيتها أنها إنسانة أخرى غير التي

أعرفهـا زاد الحـزن في ملامحهـا والشـرود في نظراتهـا، فسألتها:
_هل تحبين ياسين؟
لم تجاوبني واضطربت وأشاحت بوجهها عني.
_ أظن أن الأمر من المفترض أن يسعدك يا حـنين، لمـاذا يسكن الحزن عينيكِ؟
جاوبتني بهدوء:
_ لا أعلم كيف صار الأمر هكذا.
_ ياسين يستحق الحب.
_ وأنت؟
_ ماذا عني؟
أخذت تتهـرب بعينيهـا من نظـراتي، ثم تنهـدت ثم تـرددت فعادت للصمت مرة أخرى.
_ أعرف ما يعكر صـفو حبـك، أنتِ تعتقـدين أني أحبـك يـا حنين.
_عمر، القلوب ليس لنا عليها سلطان، ولكن يعلم الله كم أكِن لك من مشـاعر احـترام وتقـدير، ومـا شـعرت بنعمـة وجود الأخ إلا معك.
_ وأنا أيضا أعتز بكِ ومنزلتك عندي مثل منزلة شيماء.
بدأت نظراتها تنم عن الشفقة والحسرة وأدركت ما تفكـر به فباغتها:
_ أنا صادق معـكِ، وبالفعـل سـعيد جـدا أن القـدر جعلـني سببًا في قربك من ياسين.
_ حقًّا يا عمر؟
_ نعم يا حنين، وفعلا ستكتمل سعادتي عندما يتم الارتباط رسميًّا.
_ أنـا لا أسـتطيع الاسـتغناء عنـك، يجب أن تعلم ذلـك، أنـا أشعر أنك من دمي.
جاء في خاطري أن أؤكد لها حدسها، ولكني عقبت قائلا:
_ وأتمنى أن يستمر هذا الشعور ولا يتأثر بأي شيء.

ابتسـمت حـنين في هـدوء وخـالطت الـدموع ضـحكتها، وأنهيت معها الحديث بدعابات كثيرة جعلتها تنصرف بحـال أحسن مما جاءت به.

الفصل الثالث والعشرون

أسرار أبي..

تغيرت علاقتي بأبي كثيرًا، أصبحنا أكثر قربًا مما مضى، أصبح يطرق باب غرفتي ويجالسني، حتى جاء اليوم الذي طرق بابي لأجده بابتسامته الهادئة حاملًا فنجانين من القهوة ويستأذن للدخول:

_ ما رأيك لو شاركتني قهوتي؟

_ وهل هذا يستحق التفكير؟ بالطبع تفضل بالجلوس يا أبي.

_ أريد أن أحدثك في بعض الأمور يا بني.

_ تحدث كما شئت يا أبي .

جلس في هدوء ووقار كعادته ثم قال:

_ أخبرتني شيماء قبل زواجها عن حلمك المزعج.

امتقع لوني وهربت بنظراتي منه وألجمت المفاجأة لساني.

_لا تغضب من شقيقتك يا عمر، هي أخبرتني بسبب قلقها على حالك.

_ لم أغضب يا أبي اطمئن.

_ اصدقني القول يا بني، لماذا حاولت الانتحار؟

لحظتها شعرت أنه يعلم كل شيء وجملته القادمة ستكون لماذا قتلت سلامة؟

أردف يقول في حنو بالغ وعطف شديد:

_وهل رحيل شيماء يجعلك تنتحر؟ نسيت أن لك أبًا وأمًا يحبانك ولا يتحملان هول ما فعلت.

_ سامحني يا أبي.

ممسكًا بأذني ابتسم وقال:

_ بـالطبع سأسـامحك، لكن أوعـدني ألا تجعـل الشـيطان يسيطر على تفكيرك مرة أخرى.
_ أوعدك يا أبي.
ناظرًا في فنجانه سألني:
_ أسمعت باختفاء سلامة الصعيدي؟ الحي كله يتحدث عن الأمر.
_ نعم، أخبرني ياسين.
_ هل تحدثت معه عن حلمك أو النجمة التي ترسمها؟
_ لا لم يحدث.
ضيَّق عينيه وعبث بلحيته قليلا، ثم قال:
_ عمر، أعلم أنك تريد أن تعرف سر قطيعتي مع سلامة.
_ لا يا أبي أنا لا أريد أن أعرف، وأحترم رغبتك بعدم البوح بالأمر.
_ ولكنني سأبوح لك به، ويكون سرًا بيننا حتى تعلم حقيقة الأمر.

حكى لي والدي ما حكته الغجريـة والـدة حـنين قبـل ذلك من محاولته هو وسـلامة الحصـول على الكـنز، ولكن الذي لم أكن أعرفه هو أن جدى ووالد سلامة هما أول من وصـلا إلى المقـبرة واسـتطاعا فتحهـا بفضـل الكتب الـتي كان يحتفظ بها جدى وكيف هربا عنـد مهاجمـة الجن لهمـا ولم يحصـلا من الكـنز إلا على الخـاتم الـذي كـان في يـد المومياـاء وصــندوق خشــبي يحتــوي على كتب ولفافــات ورقية ، لم يخبرني أبي شـيئًا عن عهـد المغـربي، وسـكت عن ذلك. تصنعت الدهشة والخوف مما يقصـه أبي، الـذي كان يتحـدث عن أهم أسـرار حياتـه بتركـيز شـديد وملامح تعبر عن خوفه من أن أتورط مثله في هـذا الأمـر، التقـط أنفاسه بعد عودته من رحلة ذكرياته، ثم قال:
_ لقد أفرغت لك مـا في جعبـتي من أسـرار كنت أخفيهـا عليك، وعليك الآن أن تعدني بعدم تتبع الماضــي أو البحث

عن أي شيء يخص هذا الموضوع، هذا شر يا بني فاجتنبه ولا تخطيء مثلما أخطأت أنا من قبل.
_ اطمئن يا أبي، اطمئن.
_ لا تُحزن والدتك يا عمر، هي مريضة ولن تتحمل أن يحدث لك أي مكروه.
خرج أبي من غرفتي بهدوئه ليضربني إعصار من الأفكار المخيفة أن تكون والدة حنين أخبرت أبي بكل شيء وفضحت أمري عنده، لكن استبعدت الفكرة، لن يكون هذا رد فعل رجل شريف حر طُعن في شرفه، لكن لماذا حكى لي كل شيء الأن؟ هل أراد هو الآخر أن يلقي لي بأسراره مثلما فعل سلامة في رسالتهظ لكن في النهاية يجب أن ألتزم بوعدي له بعدم التدخل في هذا الموضوع ويكفي ما حدث لي من ورائه.
في اليوم التالي أخبرني ياسين أنه استأذن في زيارة حنين ووالدتها في بيتهم ليتقدم لخطبة حنين رسميًّا، سألني ياسين عن رأيي في ارتباطه للمرة الأخيرة، لكني أكدت على رضا نفسي عن الموضوع وسعادتي به. بعد مغرب يوم الجمعة كنا جالسين أنا وياسين وحنين ووالدة حنين ووالدة ياسين نتبادل التهاني وتحديد موعد رسمي لقراءة الفاتحة وتمام الخِطبة .
ولكن حدث ما كنت أخشاه واستغلت والدة حنين الفرصة وطلبت لقائي في اليوم التالي، حاولت الاعتذار لها لكن بنظرة مهددة اضطررت للموافقة رغمًا عني.
تقابلنا في موعدنا الذي تحدد له الساعة الرابعة في كازينو داخل المدينة وليس على البحر كما طلبت مني، انقبض صدري حين رأيتها لكنني أظهرت الثبات عندما جلست في مواجهتي قائلة:
_ كان من الواجب عليّ أن أشكرك على إنقاذك لحنين.
بداية متوقعة ولكني حافظت على هدوئي، فقلت:
_ أنا لا أستحق الشكر، لم أفعل شيئًا من أجلها.

أخذت تعبث بيديها غير مكترثة بردي ثم أردفت:
_ أعلمت أن سلامة اختفي من مدة؟
_ نعم علمت، الجميع يعلم ذلك.
_ نعم، لكن الجميع ليس يعلم أن شفاء حنين كان بقتل سلامة.
_ لماذا تقولين أن سلامة قُتل، هو غائب وربما يعود في أي وقت.
_ أنت تعلم أنه لن يعود، وهل الموتى يعودون؟
أخذت تحاصرني بظراتها الثاقبة وتضغط على أعصابي بفكيها الناصعين البياض وقلبها جمرة نار ظهر لون لهيبه على وجهها المتقد، ثم أطلقت لسانها يتلوى قائلة:
_ حتى لا نضيع وقتنا، أنا أعلم أنك قتلت سلامة وأشكرك على ذلك جدا ولكن يجب أن تستعد لما هو قادم.
انتفضت غضبًا:
_ أنا لم أقتل أحدًا.
جذبتني من يدى وأرغمتني على الجلوس وهي تبتسم:
_ لا تغضب، سأبلغ الشرطة وهي ستقوم بالبحث عن سلامة في منزله وتخبرنا من قتله.
_ افعلي ما يحلو لكِ، لا دخل لي بما تنوين فعله.
قهقهت باستفزاز صارخ:
_عمر الشجاع.
ثم حدقت فيّ بقوة واقتربت مني قائلة:
_ أنا أعلم ما لا تعلمه، غير قتل سلامة عندي من الأسرار ما يحول حياتك إلى جحيم، فمن صالحك ألا تثير عداوتي.
مرت دقيقة لم أحد عيني عن عينها ثم أشحت بعيني عنها متململا .
_ اسمعني يا عمر، أنت نفذت أصعب ما في الأمر وهو قتل سلامة، والآن بقي الأمر الثاني وهو الحصول على كنز المغربي، أنا أعلم كل شيء وأعلم أنك الآن صاحب العهد والكنز أصبح ملك يمينك، ولكن حنين أيضا لها حق

في هذا الكنز، وأنا أيضا تعويضًا عما لاقيناه من سلامة، الفرصة أمامنا لنعوض ما فات.
_ أنتِ تهذين لا محالة.
_ لن أضيع وقتي معك أكثر من ذلك، فكر في الأمر وسأنتظر إجابتك، ولا تثر عداوتي كما حذرتك سابقا.
كنت أعرف ما تلمح اليه لكني صمت منتظرا، ولكنها لملمت أشياءها بعصبية وانصرفت..
خرجت تزحف كالأفعى بعد أن سممت بفحيح كلامها جسدي، حدث ما كنت أخشاه، لقد حذرني منها سلامة قبل ذلك وكان محقًّا، عدت إلى البيت منتكسًا مشتتًا ضائعًا، ماذا سأفعل الآن؟
قضيت الأسبوع في تفكير لا ينقطع وقلق مستمر، واختلف أمري ما بين موافقة وخوف منها وبين عناد وكره لها، وضعت كل السيناريوهات المتوقعة لكل قرار من الممكن أن أتخذه، فكرت جديًّا في قتلها هي الأخرى وأتخلص منها، فكرت في مصارحة ياسين بما حدث، لكني لم أرد أن أفسد فرحته بخطوبته، فكرت في والدى ولكن كيف أستطيع أن أخبره أني قاتل وأني لست ابنه..
جاء الشتاء سريعًا، وفي يوم ذهبت إلى الشجرة جلست مستندا بظهري على جذورها، شعرت أنها تحس بما أعانيه وتواسيني، وفي أثناء جلستي ناداني برفق:

_عمر.
رفعت رأسي وسددت نظراتي إليه
_ كيف حالك يا عمر.
_ أنت؟ من أين أتيت؟ ولماذا تلاحقني هكذا؟
اقترب بكرسيه المتحرك يمد يده بمنديل من بضاعته
_ ابتعد عني، لا أريد شيئًا.
هز رأسه بهدوء وأعاد بضاعته قائلا:
_ أخبرتك قبل ذلك، يجب أن تسير الطريق إلى نهايته.

_ تبًّا لغبائي، أنت المغربي لا محالة.
قهقه ضاحكًا فزاد غضبي واقترب قليلا، وقال:
_ لا لست المغربي.
_ من أنت ؟ كفى غموضًا.
_ أنا هنا لأساعدك، هذا كل شيء.
_ لا أريد مساعدتك، ابتعد عني.
نظر لي في شفقة بالغة وقلّب كفيه في استسلام .
لم يطلب مني كعادتـه أن أدفـع لـه كرسـيه المتحـرك بـل دفعه بنفسه في سلاسة عالية وانطلق في طريقه أراقبــه بعيني حتى اختفى أثره.

الفصل الرابع والعشرون

غياب الشمس..

مر الأسبوع سريعًا دون أن أتوصل لقرار، عزمت أمري على الهروب من لقائها وعدم حضور خطبة ياسين، بعد صلاة الجمعة كنت عند ياسين في بيته نرتب كل شيء، وبعد المغرب وقت ذهابه إلى خطبة حنين تراجعت فيما عزمت عليه بعدم الحضور وكيف لي أن أترك ياسين في هذا اليوم؟ لن يغفر لي صديقي، ولن أستطيع تبرير ذلك بوعكة صحية مفاجئة كما خططت لن أتركه وما يحدث يحدث..

ذهبنا إلى شقة حنين التي زينت في هدوء لاستقبال هذا اليوم، سار كل شيء عاديًّا من تهانٍ ومأكولات ومشروبات، وتعمدت أنا والغجرية تجاهل بعضنا البعض حتى ينتهي الحفل في سلام. ولكنها ما لبثت أن أشارت لي أن أتبعها إلى شرفة البيت، بابتسامة سخيفة باغتتني:

_ هل فكرت فيما طلبته منك؟

شردت قليلا لكني اتخذت قراري:

_ لن أحضر الكنز.

هزت كتفيها في عدم اكتراث قائلة:

_ افعل ما يحلو لك، وأنا أيضًا سأفعل ما يحلو لي.

_ لن تستطعي أن تفعلي شيئًا.

رمقتني بنظرة مهددة:

_ سترى يا ابن سلامة، وستأتي تحت قدمي راكعًا.

حركت يدى أمام وجهها في فتور.

ثم خرجت غاضبة رغم ابتسامتها المزيفة في وجوه ضيوفها، لم أندهش من مخاطبتها لي بابن سلامة فهذا أفضل وكنت أتوقع منها أن تهددني بهذه الحقيقة، انقضي اليوم وعدت أنا وأبي وأمي إلى منزلنا..

لا أعرف لماذا قـررت عنادهـا مـع أني أعلم تهديـدها لي، شيء في نفسي كان يخبرني أني أستطيع ردعهـا في أي وقت، كانت فرحتي لياسين وحنين أقوى من تهديـدات الغجريـة وشـرور جشـعها، جعلتـني مطمئنـا رغم سـوء موقفي ولكني تقريبا أصبحت معتادًا على القلق ومـا عـاد يزعجني مثل سابق عهدي، فأنا تغيرت.
كنت أظن الأمـور سـتظل عالقـة إلى أمـد بعيـد، وتـوالت الأيام وبـدأت أتـوهم أني كبحت جمـاح والـدة حـنين وأنهـا ستضطر إلى تقبـل قـراري بـدون أدنى ردة فعـل معتمـدا على رغبتهـا في عـدم إزعـاج حـنين في حياتهـا بإثـارة مشكلات تقلب الأمور رأسًـا على عقب، حـتى جـاء اليـوم المشئوم عندما كنت عائدا من جولـة سـير فـرأيت والـدة حنين وهي تخرج من باب بيتنـا، فرمقتـني بنظـرة انتصـار قائلة(كش ملك يا عمر). أسرعت الخطى وصعدت الـدرج في قلـق شـديد من مغـزى هـذه الزيـارة، دخلت شـقتنا فوجدت أمي جالسة في غرفة الضيوف يعلو ملامحها الهم والكدر وتبكي بحرقة.
_ماذا حدث يا أمي؟
نظرت لي في صمت ثم احتضنت وجهها بكفيهـا في نوبـة بكاء هيستيرية
قلت بلسان متلعثم:
_ مـاذا قـالت لـك والـدة حـنين؟ لقـد رأيتهـا وهى تغـادر المنزل؟
قالت بصوت يقاطعه شهقات البكاء:
_ سامحني يا عمر.
_ أسامحك على ماذا؟ أخبريني ماذا حدث؟
لم تجب وبدأت عينيهـا تتجمـد في أحـداقها وتمـددت ذراعها بجانبها مما ينذر بنوبة شديدة من نوباتهـا العصـبية، لم أعـرف مـاذا أفعـل، أخـذت أتلفت حـولي باحثـا عمن ينقذها من نوبتها وينقذني من جنوني، حملتهـا إلى غرفتهـا

وأتيت لها بكوب مـاء، كنت أريـد أن أتركهـا وأذهب لطلب المساعدة ولكنها تشبثت بيـدي ولم أسـتطع الإفلات منهـا ثم أرخت عني قبضتها في ضعف شديد قائلة:
_عمر حافظ على سرنا يـا بـني، لا تجعـل رضـوان يعـرف شيئًا، عدني يا عمر.
_ لن يعلم أحد شيئا يـا أمي أعـدك، ولكن لا تحـزني، لقـد قتلت سلامة، أخذ عقابه على جرمه معكِ، لا تحـزني، لقـد انتقم لكِ ولدك.
تملكها السعال الشديد وتكلمت بصعوبة قائلة:
_ كنت أتمــنى ألا تعلم شــيئًا ممــا جــرى، حــاولت قــدر اســتطاعتي ألا تعلم، ولكنــك علمت رغمًــا عن كــل محاولاتي.
كانت تنظر لي بشفقة وحـزن وخجـل شـديد، مـدت يـدها ولسمت رأسي للمرة الأخـيرة بكفهـا ثم تـوقفت وتوقـف صدرها اللاهث عن التنفس، ساد الصـمت لمـدة دقيقـة لا يقطعـه إلا تشـنجات بكـائي، تملكـني الـرعب من صـمتها رفعت رأسي ناظرًا إليها لأجدها مبتسمة وعيناهـا تنظـران إلى الفراغ، ناديتها بهدوء:
_أمي.
لم تجبني ،فكررت النداء بصوت يملؤه الرجاء والذل:
_جاوبيني يا أمي.
فلم تطـرف لهـا عين، فناديتهـا بفـزع شـديد وصـراخ طفــل ضــائع، وكلمــا زاد اســتيعابي لموتهــا زاد غضــبي ورفضي لما يحدث، ولم أسـتفق ممـا أنـا فيـه إلا وأنـا في غرفتي وياسين جالس بجانبي على سريري، فناديت:
_ أمي، أين أمي يا ياسين؟
_ البقاء لله يا عمر، غدا سنذهب لزيارة قبرها.
_ أي قبر، أمي في حجرتها على فراشها.
_ لا حول ولا قوة إلا بالله، لا تجهد نفسك يا عمر أرجوك.

بعد دقيقة دخلت والدة حنين تحمل حقنة فتملكني الفزع منها وانكمشت في سريري. نظرت لي في خبث شديد وهمست قائلة (أنت السبب في موتها، لو كنت نفذت ما طلبته منه ما كان حدث ذلك، مسكينة). ولم أشعر بنفسي بعد أن حقنتني بسم كلامها إلا في اليوم التالي، أخبرني ياسين أني فقدت الوعي كليًّا بعد وفاة والدتي وأنهم قاموا بدفنها قبل أن يعود إليّ الوعي، طلبت من ياسين أن نذهب لزيارة قبرها فنصحني بتأجيل الأمر حتى أسترد بعضًا من صحتي، عشت أيامًا حطامًا في حطام، يعتصرني الألم ويطحن ضلوعي، لم أهدأ إلا بعد مكالمتي لشيماء التي لم تستطع الحضور بسبب حملها ولكننا تشاركنا في حزننا كأننا نتعانق تحت ظلام حياتنا بغروب شمس أمي إلى الأبد.

الفصل لخامس العشرون

عودة سلامة..

ساءت صحتي وهزل جسدي أكثر مما كان، ذبل عـودي وجـف مـاء الحيـاة من وجهي بعـد أن بـتر المـوت جذوري، صدقني قمة المعانـاة في هـذه الحيـاة أن تكـون يتيمًا، شعرت بالغربة في بيتي بعد وفـاة أمي، كـان أبي لا يقل حزنًـا عـني وكـل منـا لم يسـتطع مواسـاة الآخـر في مصيبته، كنت أقضي أيامًا نائمًا منفصلا عن واقعي، وأيامًـا أخـرى لا أعـرف للنـوم طريقًـا، لم يكن في ذهـني فكـرة محددة غير حزني على أمي وتكرار ذكرى موتها بين يدى، لم تفلح زيارات ياسين وحـنين ومواسـاتهما لي في كسـر الظلام من حولي، تمكن اليأس مني الذي ملأ قلبي حقــدًا على الحياة وما فيهـا، حـتى فكـرت في الانتقـام لأمي من والدة حنين، كنت شاردًا كعادتي بين النـوم واليقظـة تحت الشجرة القديمـة الـتي لم أجـد راحـتي إلا بجوارهـا كأنهـا تربت على كتفي بأغصانها، تركني الحـارس الجديـد الـذي حـل محـل سـلامة في حراسـة الأرض المهجـورة والـذي عاملني بشفقة زائدة كغيره من سـكان الحي لأن مرضـي وانهياري بعد وفاة أمي لم يخفَ عن الناس، وبعضـهم ظن أني فقدت عقلي، فسمعته يناديني:

_ عمر.

رفعت رأسي ففزعت منه.

_ ستظل كثيرا علي هذا الحال يا ولدي.

لم أجبه محدقًا في ملامحه.

_ انهض وانتقم لوالدتك يا عمر.

_ كيف عُدت يا سلامة؟

_ عُدت حتى تعُود أنت أيضا.

_ ماذا تريد مني؟يكفي ما حدث ليّ.

_ انتقم من الغجرية.

_تريد أن أقتلها مثلما قتلتك؟
_ نعم وتُشفي غليلي.
_ أنت محق في هذا، هي تستحق القتل مثلك.
_ لن تقتلها وتدفنها في بيتها مثلما فعلت معي، ستقتلها بالسحر الأسود.
_ مثلما قتلت علاء؟
_ نعم، ستغل عهدك مع المغربي وتستخدمه.
_ أنا لست ساحرا ولن أستطيع فعل هذا.
_ سأخبرك بما عليك فعله.
أخبرني سلامة بما سأفعل لتنفيذ السحر لوالدة حنين والتخلص منها إلى الأبد، كنت مستمعًا بانتباه شديد له، مطيعا لتنبيهاته حتى فرغ من حديثه وظل ناظرًا إليّ صامتاً، فسألته:
_ ثم ماذا؟
_ هذا كل شىء .
_ من أين أتيت بكل هذا الشر؟
_ الشر داخلك وداخلي نستدعيه عندما نحتاجه.
_ أين أنت ذاهب ؟
_ سأعود من حيث أتيت، هذا فراق بيني وبينك.
ثم أدار ظهره لي وذهب مودعًا للمرة الأخيرة. اختلط عليّ الأمر، هل ما رأيته حقيقة أم منام؟ لم أكترث بحقيقة الأمر أكثر من عزمي على تحقيق ما أرشدني إليه سلامة لطريقة الانتقام من والدة حنين وعزمت أمري على الذهاب لبيت سلامة في هذه الليلة لتنفيذ رغبتي.
اشتريت الأشياء التي سأحتاجها، انتظرت حتى منتصف الليل ثم تسللت من منزلي دون أن يشعر أبي، تلصصت على المارة في الشارع حتى وصلت إلى بيت سلامة الذي رفض الحارس الجديد المبيت به لما سمعه عن سلامة فخشي على نفسه، هذا البيت مرة أخرى، إنه من أكثر الأماكن التي كرهتها في حياتي، لم أزره إلا

وخرجت منه بمصيبة أكبر من الأخرى، تقـدمت إلى البـاب الذي أهلكته الوحدة وظهرت على ملامحه تجاعيد الـزمن، ضـعفت قـواه فـانفتح المـزلاج بمجـرد دفعي للبـاب ولم يعارضـني كمـا تعـودت منـه، دخلت الـبيت وأغلقت البـاب ورائي، كـان الظلام يخيم على المكـان كعادتـه، أخـرجت شمعة من حقيبة صغيرة أحضرت فيها كل مـا أحتـاج إليـه لتنفيذ ما جئت من أجلـه، أين ذهب الخـوف الـذي تعودتـه يجتـاحني في كـل وقت، حـتى عنـدما تخيلت أني سـأجد سـلامة جالسًـا على الأرض لم ينتبـني أي خـوف ورحبت بذلك. تفقدت البيت، كل شـيء كمـا تركتـه في مكانـه لم يتحرك، حتى نفسي القديمـة الـتي تركتهـا هنـا يـوم قتلي لسـلامة ظلت في هـذا الـبيت وتخلت عـني ورفضـت أن تكمل الحياة معي، بدأت أستعيد حديثي الأخير مـع سـلامة وصوته يتردد في أذني قائلا:

_ ارتدي عبائتي عند دخول البيت عبايتي يا عمر؛ ستحميك من أى أذى.

مـددت يـدى والتقطتهـا من على الأرض، وبهـدوء شـديد نفضـت عنهـا الغبـار وارتـديتها ببطء، وشـعرت أني بـدلت جلدى وجسـدى وورثت سـلامة ميراثًـا شـرعيًّا تركـه الأب لابنه.

_أشعل البخور وضعه أدام الصندوق .. ففعلت

_أجرح نفسك وضع علي الجـرح القماشـة السـوداء حـتى ترتوي بدماءك.

أخـرجت شـفرة من شـفرات الحلاقـة من الحقيبـة وبدون أي تـردد شـققت بـاطن يـدى وتـركت دمي يسـيل على القماشة السوداء التي أمسـكها بيـدي الأخـرى، حـط الجماشة جوة الصندوق وحط يدك المجروحة على النجمة اللي في غطا الصندوق ولونها بـدمك. أخـذت أحـرك يـدى فوق النجمة والدم يجري بلا انقطـاع حـتى تلـونت بـاللون الأحمر كما طلب سلامة.

_ أغلق عينيك يا عمـر ولا تفكـر إلا بالغجريـة ورغبتـك في الإنتقام منها.

بدأت أركز تفكيري على والدة حنين وأتذكر تهديداتها لي ووداعي الأخير لأمي حتى زاد غضبي، فزاد سيل الـدم من يدى وشعرت بيد أخرى تقبض على يـدى بقـوة، لكـني لم أخش منها كما أوصاني سـلامة وبـدأت أرتـل التعويـذة المدونـة على جـانب الصـندوق كمـا أخـبرني سـلامة من أسفل إلى أعلى، حروف مفككة وأرقام مسلسلة وكلمات لا تدل على أي معنى.

_ ردد المكتوب علي الصندوق ثلاث مرات يا عمر

فكررتها ثلاث مرات مختتما بنـدائي على المغـربي وأمـره بطاعتي في تنفيذ ما أردت.

انتظــرت حــتى ذابت الشــمعة كليًّا وخمــد البخــور، فأخذت القماشة السوداء المروية بدمي الذي تخـثر عليهـا وأحرقتها ووضعت رمادها في الصندوق ثم أغلقتـه وخلعت عني عباءة سلامة وغطيت بها الصـندوق وجمعت مـا بقي مني وأغلقت البـاب ورائي وعـدت إلى مـنزلي في مطلـع الفجر. ودخلت غرفـتي أتمـدد على فراشـي لا أعـرف من هذا الذي أنا عليـه ومـاذا يفعـل وأي عقـاب ينتظـرني من الله جراء ما فعلت في حياتي..

الفصل السادس والعشرون

لذة الانتقام..

انتظرت بفارغ الصبر أي أخبار تصلني عما حدث لوالدة حنين، لم يزرني ياسين منذ يومين، حتى جاء يعلو وجهه الكدر، فسألته:

_ ما بك يا ياسين؟

_ والدة حنين يا عمر، مر يومان وهي فاقدة لشهية الطعام لا تغادر حجرتها، أحضرنا لها الطبيب فلم يستطع تشخيص حالتها وأعطاها بعض الأدوية التي تعوضها عن نقص الغذاء.

_ لا تقلق، ربما تكون وعكة صحية وتنتهي.

_ حنين في غاية الحزن على مرضها.

شردت عندما سمعت اسم حنين وحظها السيئ الذي يشبه حظي، قتلت سلامة من أجلها والآن أقتل والدتها من أجلي، وهي في الحالتين لم تقترف أي ذنب، دخل والدى وانضم إلينا وأخبره ياسين بما حدث لوالدة حنين فتأسف عليها وقال: سنذهب بعد المغرب لزيارتها لابد من ذلك يا عمر.

لم أتوقع من أبي هذا الطلب، ولم يكن لدي أي رد على دعوته سوى الصمت، ولكن في لحظة شيطانية وافقت على الذهاب معهم فقط لأتشفى بها وأشفي غليلي منها وأرى انتقامي بعيني.

باغتني ياسين قلقا:

_ ماذا حدث لإصبعك، هل جرحت نفسك؟

جاوبته متلعثمًا من ملاحظته:

_ إنه السكين جرحني وأنا أعد شيئًا في المطبخ.

_ احترس بعد ذلك يا صديقي، سأذهب أنا الآن وسأعود في المساء لنذهب لبيت حنين.

ذهبت أنـا وأبي وياسـين مسـاءً إلى بيت حـنين الـتي استقبلتنا بملامح حزينة وعيون متوسلة، بعـد دقـائق طلب أبي الإذن بـأن نـدخل ونـرى والـدة حـنين، سـبقتنا حـنين بخطـوات ثم فتحت بـاب الغرفـة ببطء، وجـدناها ممـددة على سريرها مطبقة جفنيها بوجه شاحب، بمجرد شعورها بوجودنا فتحت عينيها وبدأت تمر على الحاضرين بنظـرات خائفـة، ومـا إن وقـع نظرهـا عليّ حـتى فـزعت وبـدأت بالصراخ والتواري خلف غطاء سريرها، هرعت إليها حـنين تحتضـنها وتطمئنهـا، لكنهـا لم تكـف عن الصـراخ وبـدأت تنهش وجهها بأظافرها في جنون، اقـتربت منهـا في بـرود وملت على أذنها مبررًا ذلك بأني سأتلو عليها القرآن وهي تنظر إليّ يسكنها الرعب والخوف، قائلا: (لقد نسيتِ قـوة العهـد الـذي أملكـه، لا تنسـي أن تبلغي سـلامي لسـلامة الصعيدي أيتها الغجرية).

كتمت صـراخها وبـدأت تفقـد وعيهـا وتئن في ضـعف شديد، أخبرتهم بأنهـا سـتنام في هـدوء، انصـرفنا من بيت حنين التي تتمزق مما يحدث وأخبرتنا بـأن والـدتها لا تنـام وتعـاني من رؤيـة أشـياء غـير موجـودة وهلاوس شـديدة وفزع من شخص تَدَعي أنه يراقبها طـوال الـوقت، حاولنـا طمأنتها باحتمال وجـود مـرض نفسـي وأن هـذا لن يـدوم طويلا، عدت إلى بيتي متنـاقض المشـاعر مـا بين شـماتة في والدة حنين وإحسـاس بالانتصـار عليهـا وبين شـفقتي على حنين وحزنها على والدتها.

بعد ساعة من عودتي تفاجأت بياسين يعود إليّ

_ ماذا هناك يا صديقي؟

_ أتعلم يا عمر أن حنين أخبرتني أن مـرض والـدتها يشـبه نفس المرض الذي كانت تعاني منه.

_ لا أفهم قصدك؟

_ هل لك صلة بمرض والدة حنين يا عمر؟

_ ماذا تقول يا ياسين؟

_ عمر أنت من أنقذت حـنين من السـحر بقتلـك لسـلامة، والآن جـاء نفس المـرض لوالـدتها، فمن المؤكـد أنـك من دبرت لذلك.
_ أتعايرني بالقتل وتتهمني بالسحر؟
_ اسمع يا عمر، أنت من يوم أن قتلت سلامة وأنت لست في حالة طبيعية، من الممكن أن تكـون فعلت ذلـك وأنت لا تدرى، كل ما أطلبه منك أن تحاول شفاء والدة حنين.
_ أنت تتهمني بالجنون أيضا وفقداني لعقلي.
_ لا، بل حنين من ترجتني لأطلب مسـاعدتك، خاصـة بعـد ما حدث أثنـاء زيارتـك والـذعر الـذي عاشـته المـرأة بعـد انصرافك.
_ أنا لم أفعل شيئًا يؤذيها ،ولماذا سأفعل ذلك؟
_ فكر في الأمر يا عمر قبل فـوات الأوان، أرجـوك حـنين ستموت حزنا على والدتها.

خرج ياسـين من عنـدي غاضـبًا، كـانت المـرة الأولى التي نختلف فيها لهذه الدرجـة، لمـاذا لم أخـبره أن والـدة حنين هي السـبب في وفـاة أمي وأني قمت بهـذا انتقامًـا منها؟ حب ياسين لحنين طغى على حبه لي ولم يغفــر لي الأمر كما تعودت منه، كمـا تـوقعت يـراني الجميـع أعـاني الجنون، هل هم محقـون فيمـا يقولـون؟ من المحتمـل أن يكون مـا فعلتـه بسـلامة ومحاولـة انتحـاري وتـورطي في عهد المغربي أثر على صـحتي العقليـة واتـزاني النفسـي، مـاذا سـيفعل ياسـين وأي ورطـة أخـرى سـأقع بهـا هـذه المرة..

بعد يـومين وفي منتصـف الليـل رن جـرس الهـاتف لأجـد حنين على الطرف الآخر من المكالمة.
_ كيف حالك يا حنين؟
_ عمر أرجوك ساعدني في شفاء أمي.
_ وكيف لي أن أساعدك؟

_ أخبرتني أمي قبل ذلك أنـك قمت بإنقـاذي من السـحر، أرجوك يا عمر أتوسل إليك أنقذ أمي.
_ لا أستطيع أن أفعل شيئًا يا حنين، صدقيني.
_ انظر، إن كان أرتباطي بياسين وحبي لـه هـو مـا دفعـك لإيذاء أمي فأنا سأنهي هـذه العلاقـة وسـأبتعد عن ياسـين للأبـد وأكـون رهن إشـارتك، لكن أرجـوك أفعـل شـيئًا من أجلها.
_ ماذا تقولين يا حنين ؟
استمر بكاؤها دون انقطاع.
أنهيت المكالمة من طرف واحد وأخـذت أفكـر فيمـا قالته حنين، كنت متوقعًا أن تطلب مسـاعدتي، ولكـني لم أتوقـع أن تفكـر بـأني من قمت بعمـل السـحر لأنتقم من ارتباطها بياسين، هل الجميع أصبح يخشاني لهـذه الدرجـة كما قال ياسين؟ تأذيت كثيرًا من حزنها ورق قلـبي لحالهـا وفكرت للحظة كيف أساعدها ولكـني تـذكرت مـوت أمي بسبب والدتها، فبررت لنفسي ما أفعل كما تعودت دائما..
مـع أذان الفجـر وجـدت أبي يطـرق بـابي ويـذكرني بالصلاة، لم أجبه متظـاهرا بـالنوم، تابعتـه وهـو يتوضـأ ثم يفتح بـاب الـبيت ويتوجـه إلى المسـجد، حـاولت أن أنـام ولكني لم أفلح في هذا، عاد أبي من المسجد وبعد دقـائق وجدته يطرق بابي مرة أخرى وينادیني، نهضت وفتحت له الباب فدخل:
_ ألم تصلي الفجر يا بني؟
_ سأصلي يا أبي.
_ لا يا بني لن تصلي ولم تصل منذ فترة.
لم أسـتطع الاعـتراض، بالفعـل منـذ قتلي لسـلامة وأنـا انقطعت عن الصلاة وقراءة القرآن.
_ من ينسي الله ينسيه الله نفسه يا بني.
نظرت إلى أبي وشعرت بأن إعصارًا يضـرب أركـاني ويختلـع ثبـاتي من جـذوره وتحملـني ريـاح الخـوف إلى

أحضان أبي، فسقطت دمـوعي من سـواد عيـني كالسـيل وانهرت انهيارًا كاملًا، ثم نظـرت إلى أبي الـذى اغـرورقت عيناه بالدموع حزنًا على حالي قائلا:
_ لقد قتلت سلامة يا أبي.
دُهش أبي من كلامي لكن رفض تصديقي قائلا:
_ لا يا بني أنت لم تقتل أحدًا، أنت تمر بأزمة نفسية حادة، ويبدو أنك تتوهم بعض الأشياء.
_ لا يـا أبي، أنـا قتلت سـلامة وقمت بدفنـه تحت سـريره مثلما فعل مع والده.
ظهرت نظرات الفـزع على أبي وتأكـد من إلمـامي ببعض تفاصيل الماضي فزاد توتره.
_ ولماذا قتلته يا بني؟
_ لأنقذ حنين من السحر الذي دبره لها.
_ ولماذا دبر سحرًا لحنين؟
_ ليرغمني على قبول عهد المغربي .
كان الفزع الذي في وجه أبي كفيلا بتمزيـق مـا بقي مـني من مشـاعر، أخـذ يسـب ويلعن سـلامة وينظـر إليّ في شـفقة وقلـق وارتيـاب، ثم احتضـنني وأخـذ يبكي بحرقـة ويتهم نفسه بأنه السبب في كل ما حدث لي وبأنـه أخطـأ عندما نزل هو وسلامة إلى الكنز في شبابه.
كـان الموقـف عفويًّا في كـل تفاصـيله، ولكـني استطعت السيطرة على نفسي والتحكم بهـا عنـدما جـال بخـاطري أن أحكي لأبي تفاصـيل اغتصـاب سـلامة لأمي، وتذكرت رجاءها عند موتها بعـدم إطلاع أبي على الحقيقـة مهما حدث فاكتفيت بما كشـفت الغطـاء عنـه من أسـرار وصـمت حـتى نمت وأبي بجـانبي يراقبـني في حسـرة وشفقة وندم.ـ

الفصل االسابع والعشرون

خلاف ياسين..

استيقظت من نومي بحال غير التي كنت عليها، تذكرت مكالمة حنين ورقة قلبي لحالها وحزنها على أمها، وتذكرت اعترافاتي لأبي وهدم الحواجز بيننا إلى أبعد ما كنت أتوقع.

بعد الظهيرة باغتني ياسين بالزيارة، كان وجهه متغيرًا ما بين غضب وعداء ومكابرة، رحبت به ملاطفًا محاولا السيطرة على الفجوة التي أراها تتسع في علاقتنا، ولكنه ظل صامتًا يقلب أصابعه بطريقة متوترة ثم قال:

_ أخبرتني حنين بمكالمتها معك بالأمس.

_ نعم تحدثنا.

_ وماذا قررت ؟

_ عن أي موضوع تقصد، سحر والدة حنين، أم عن أني فعلت ذلك غيرة منك وانتقامًا بعد ارتباطك بحنين؟

_ عن الاثنين.

_ أراك مقتنعًا بكلامها، معقول أن يخيل إليك أني فعلت ذلك انتقامًا منك.

_ ولمَ لا، أنت لم تصبح عمر الذي أعرفه، أصبحت مخيفًا من يوم قتلك لسلامة.

_ توقف يا ياسين عن هذا الكلام.

_ إن لم أتوقف ماذا ستفعل؟ ستقتلني مثلما قتلت سلامة؟ أم ستدبر لي سحرًا مثلما فعلت في والدة حنين؟ لم أعد أثق بكَ وأتوقع أن تفعل أي شيء في سبيل راحتك، أنت أناني وقاتل وساحر.

_ نعم قتلت وسحرت ولكن لم أفعل ذلك انتقامًا من حنين وغيرة منك، بل فعلت ذلك لأنها تسببت في موت أمي.

_ كنت متأكدًا من أنك فعلت هذا.
_ أتمني أن تكون سعيدًا الآن باعترافي.
_ إنها لم تقتل والدتك كما تتخيل، هذا أمر الله إنه الموت، هي لم تكن سببًا
_لا هي كــانت الســبب، هي خيرتــني مــا بين أن أذهب وأحضــر كــنز المغــربي وأقتســمه معهــا وإلا كشــفت عن جريمة قتلي لسلامة.
_ فسحرت لها لتقطع لسانها عنك.
_ لا، بل سحرت لها لأنها كانت السبب في موت أمي.
_ هل ستفسد فعل هذا السحر وتعالج أم حنين؟
_ لا، لن أفعل.
_ أنت جننت، ومن الآن انقطعت صــداقتنا للأبــد، ووالــدة حنين أنا أعلم كيف سأعالجها.
خرج ياسين غاضبًا وكنت أنا أيضا لا أقـل غضـبًا عنـه، ولكن قـراره بقطـع علاقتنـا كـان وقعـه أشـد ألمًـا من أي شيء مضي، للمرة الأولى التي نفترق فيهـا ولـدي أحـدنا نيـة بعـدم اللقـاء مـرة أخـرى، لكن لمـاذا لم يشـعر بمـا أقاسيه من وفاة أمي بسبب والدة حنين؟ كيـف ينظـر لي صديقي هذه النظرة ويتهمني بالجنون والأنانية؟ لماذا كــل هذا العذاب يا صديق العمر؟
دخل أبي الغرفة بعد انصراف ياسين وسألني:
_ هـل مـا سـمعته حقًّا يـا بـني؟ أنت من سـحرت لوالـدة حنين؟
صمت وهززت رأسي موافقًا في استسلام.
_ لماذا يا بنى؟
_ لقد قتلت أمي يا أبي.
_ والدتك كانت مريضة.
_ لا هي من قتلتها.
_ هذا قضاء الله يا بني، كفى ما حدث يا عمر، رفقًا بحنين وحزنها، وخسارتك لصـديقك، رفقًـا بي يـا ولـدي ، اتركهـا

إلى الله وهو يعاقبها على ما فعلت في حـق والـدتك، هـذا ليس دورنا في الحياة أن نحاسـب النـاس، كيـف سـتقابل الله بعد كل هذه الخطايا؟

انصرف أبي من غرفتي ودموعـه تغـرق لحيتـه الـتي أطلقها منذ وفـاة أمي، تمـددت على سـريري محـدقًا في سـقف غرفـتي، رأيت سـلامة وأمي وياسـين وحـنين وأبي ووالـدة حـنين والجميـع يعتصـرهم المغـربي تحت عباءتـه وجميعهم يستغيثون بي وأنا أشاهدهم في سكون وصمت، عدت إلى الواقع لا أقـوى على أي شـيء بـدني أو عقلي، صـنم لا أضـر ولا أنفـع، تتضـارب أمـواج الحب والكراهيـة والتودد والحقد كأني مقسم إلى شخصين كل منهمـا يلعن الآخـر ويـأتي عليـه بـاللوم، وأنـا أتعـذب بين الاثـنين حـتى خلصني النوم منهما.

الفصل االثامن والعشرون

عودة هاجر..

استيقظت من نومي مع أذان الظهر، وما أسو] أن تستيقظ على نفس الألم الذي كنت تعاني منه قبل نومك، شعرت بضيق صدري ورفضي لكل شيء، وبعد تفكير طويل قررت الخروج، وقفت أمام المرآة أدقق النظر في ملامحي فزادتني نفورًا من نفسي ولما وصلت إليه حالتي الجسدية من تدهور يثير الشفقة، نزلت إلى الشارع أتحاشى نظرات الجميع التي تتصيدني وتشاهد شخصًا حزينًا مهزومًا يعاني الجنون في نظرهم، ابتعدت ثم ابتعدت يقودني غضبي، بعد معاناة مع كل شيء وصلت إليه، مازال كما هو لم يتغير به شيء، تمر السنون وتتوالى الأحداث ويموت الكثيرون ويولد أكثر منهم وهو لا يتأثر بكل هذا. يا ليتني مثله، استقبلني بحفاوة تليق بصديق غائب، فصددته وتجاهلته لفترة ورحت أجول ببصري على من حولي، أشخاص هنا وهناك، من يضحك ومن يبتسم وآخر عابس وذلك غاضب. حاولت التحايل على عقلي بإجباره على الاهتمام بشئون الآخرين لأرتاح من عناء التفكير، ولكن حيلته كانت أكبر فأطاعني فيما أريد ثم قادني بتسلسل الأفكار في النهاية إلى ما أهرب منه، نظرت إلى البحر ولمته بشدة على خذلانه لي عندما لجأت إليه وحاولت الغرق وإنهاء حياتي فرفضني، جمعت الحصوات وأخذت أرجمه مرة بعد أخرى، فرغت شحنتي الغاضبة ثم أخبرته عن خسارتي لكل من حاولت إسعادهم، خاطبني بأن كل هذا سينتهي فنهرته معترضًا، حمدت الله لعدم وجود أحد بالقرب مني وراقب ابتسامتي وتشنجاتي وغضبي وحركات يدى وبعض الكلمات التي أفلتت مني فكان شاهدا على صحة جنوني، مر الوقت وخمدت بعض نيراني فاستسلمت لهدوئي واستمتعت

بعض الوقت بصمت عقلي، حتى قاطع صمتنا صوت هادئ يربت على كتفي برقة النسيم ويخاطبني:
_ هل تحسنت الآن؟
أدرت وجهي ناظرًا إلى صاحبة الصوت هـذه اليمامـة الــتي حطت على كتفي، فوجــدتها بابتســامتها الســاحرة ووجهها المضيء تهديني نظـرة سـاحرة أعـادتني لنفسـي القديمة التي أحبها.
_ كيف علمتِ أني هنا؟
_ أنا لم أتركك لحظة واحدة يا عمر، أنا بجانبك دائما.
فجذبتها بهدوء فجلست بجانبي ممسـكًا يـدها كأنهـا طـوق نجاتي وناديتها:
_ هاجر.
_ ألم تضع نهاية لكل ما يحدث يا عمر؟
_ ماذا سأفعل؟ فأنا أصـبحت عـاجزًا عن كـل شـيء حـتى عن إنقاذ نفسي، أنتِ لا تعلمين ماذا حدث في غيابك.
_ بل حكي لي ياسين كل شيء، وذهبت إلى والـدة حـنين وبالطبع عرفت ما سبب مرضها.
أخفضت بصري وحاولت الهروب منها
_ لن ينقذها غيرك يا عمر.
_ ولماذا أنقذها، هي السبب في موت أمي.
_ من أجل حنين، وياسين صديقك الذي خسرته، من أجـل راحة والدك، وقبل كـل ذلـك من أجـل نفسـك، أنت تقتـل نفسك بأيدي الآخرين.
_ لقد فات الأوان وبالفعـل خسـرت كـل شـيء، أصـبحت قاتلاً وساحرًا ويخاف مني أقرب الناس إليّ.
_ المغـربي هـو من يفعـل كـل هـذا، يـدمر كـل من يهـدد حياتك، ولو استمر الأمر لن يتبقى أحد بجانبك، أرجـوك يـا عمر نستطيع معًا إصلاح كل شيء.
_ وهل ستعود أمي؟
_ لا، لكن بالتأكيد ستكون سعيدة بما ستفعله.

صمت متـذكرًا بكـاء حـنين وذلهـا وهي تسـتغيث بي، تذكرت ياسين وغضبه مني وخسارته، تـذكرت أبي وحزنـه وقلة حيلته، تذكرت خسارتي لنفسي فجاوبتها:
_ فليكن ما طلبتِ يا هاجر. ولكن إن عـادت لوالـدة حـنين عافيتها فستقوم بتهديدي مرة أخرى.
_ لا لن تفعل، ما تعانيه الآن سيجعلها تفكر ألف مرة قبـل الاقتراب منك.
نظرت إليها مشككًا في كلامها.
_ ألا تثق في هاجر يا عمر؟
_ أظن أني لم يتبـق لي أمـل في الحيـاة إلا أن أثـق بـكِ، ماذا ستفعلين إذن؟
_ سأحضــر إلى منزلــك هــذا المســاء بصــحبة ياســين، وسأطلعك على ما أنتوي فعله.
_ عندي شرط واحد.
_ ما هو؟
_ أن نتزوج.
ضحكت، فهاج البحر منتشيًا ثم عقبت:
_ موافقة، اذهب واطلب يدى من بائع المناديل.
غامزة بعينها.
_ وما دخل بائع المناديل؟
_ لأنـه هـو الجن الـذي يلازمـني، وهـو عيـني الـتي كـانت تتابعـك في كـل مكـان، صـدقني حـاولت منعـك من قتـل سلامة لكن أمر الله نافذ.
استقبلت هذه المفاجأة بصدر رحب وبادلتها الهزل قائلا:
_ إذن سأصـطحب المغـربي ونـأتي لطلب يـدكِ من بـائع المناديل.
انفجرت ضاحكة في دلال، ثم أمضـينا وقتنـا في الحـديث عن مواضيع بعيدة كل البعد عن مشاكلي، كان البقـاء مـع هاجر لآخر لحظة من عمرى هو أقصى طموحاتي لحيــاتي في هذه اللحظة، بعد فترة عدنا سـويًّا أنـا إلى بيـتي وهي

إلى بيت ياسين على وعد باللقاء مساءً لبداية إصلاح ما قمت به طوال هذه الفترة.

لا أدري كيف تغيرت حالتي بهذه الطريقة على يد هاجر، شعرت بشغف جديد للحياة كنت قد فقدته منذ فترة طويلة، ذهبت إلى عم سعيد الحلاق لأقص شعري، استقبلني ورحب بي كثيرا وأمطرني بوابل من الأسئلة عن كل شيء في حياتي ولكنه لم يتطرق إلى ذكر سلامة أو اختفائه، كان متوجسًا مني في بداية الأمر ثم تحول شعوره إلى شفقة عندما ذكر وفاة أمي ومدحه فيها، تحملته على كل حال، لو كان هذا قبل لقاء هاجر كان من المحتمل أن أثبت له أني مجنون رسمي، عدت إلى بيتي، فرح أبي عندما شاهدني بدون حزن لأول مرة منذ وفاة أمي، تناولنا الغداء ثم أخبرته بما دار بيني وبين هاجر وحضورها المنتظر إلى بيتنا، أظهر لي تشجيعه وأن هذا هو الرأي الصواب ويكفي ما حدث إلى الآن، ولم يستطع إخفاء غضبه من والدة حنين، لكنه ظهر مقتنعًا بالمساعدة في شفائها من أجل حنين وحتى لا أتورط في قضية قتل جديدة، حضرت هاجر ولكن ياسين لم يأت معها، ولما سألتها عن السبب قالت:

_ دعه قليلا، ما ستفعله سيصلح كل شيء بينكما.

_ ماذا أفعل لأصلح ما أفسدته؟

_ عندما توافق على ما سأطلبه منك الآن، عمر علينا أن نعيد المغربي إلى قمقمه لتعود حياتك إلى طبيعتها ونعالج والدة حنين من السحر.

_ وكيف نتخلص من المغربي بعد العهد الذي ورطني فيه سلامة؟

_ هذا من صميم عملي، سأتحدث معه وننهي هذا الأمر.

_ كيف سيحدث ذلك؟ ومتى؟ وأين؟

_ بمساعدتك طبعا وهنا والآن..

شرحت لي هاجر وكانت خطتها هي تحضير المغـربي على جسدي والتفاوض معـه، خشـيت عليهـا من حضـوره ولكنها طمأنتني بأنها قادرة على ردعه، واتفقنا على تنفيـذ الأمر..

حضر والدى بمشـروب الضـيافة فأخبرتـه هـاجر بمـا سـنفعل فأخبرهـا بخوفـه الشـديد أن يحـدث لي مكـروه بسبب هذا فطمأنته أن كل شيء سيمر بسلام.

طلبت هاجر أن ندخل إلى غرفتي، أراد أبي الحضــور ولكني صـممت على خروجـه خشـية أن يحـدث أي شـيء يشـير إلى سـر أمي من قـريب أو من بعيـد فـتراجع أبي مرغمًا، أغلقت الباب ثم طلبت مني هـاجر أن أتمـدد على سريري في هدوء وقامت بإشعال بعض البخور الخاص بها فانتشرت رائحته النفاذة بسرعة وامتلأت الغرفة في ثوانٍ بالــدخان والأبخــرة، وضــعت هــاجر يــدها على رأســي وأغمضـت عينهـا ثم راحت تحـرك شـفتيها بتراتيـل وآيـات وكلمات وأنا أستمع لها مغلقًـا عيـني كمـا طلبت مـني، ثم قمت بفتح عيني رغم أني لم أرد ذلـك ثم وجـدتني أصـرخ بصوت يشبه صوتي لكنه محشرج وأكـثر غلظـة وبكلمـات متكسرة الإيقاع، صرخت في هاجر قائلاً:

_ ماذا تريدين مني؟

أنـا لم أفتح عيـني ولم أصـرخ في هـاجر، أصـبحت لا أتحكم في حواسي، هنـاك من يحتلـني، شـعرت وقتهـا أن جسـدي يحمـل روحين وليسـت روحًـا واحـدة فعلمت أنـه حضر.

لم تهتز هاجر مما حدث بل نظرت لي بثقـة تحسـد عليهـا في موقف كهذا قائلة:

_ أريـدك أن تبتعـد عن عمـر وتعـود إلى سـالف عهـدك، أخبرني ما يقلقك وسأخلصك منه وأنفذ ما تريد.

_ أنا خادمه وأريد البقاء معه إلى الأبد، وأعطيه الكنز.

_ إنه لا يريد كنوزًا، فقط ابتعد عنه.

شعرت بيدي تمتد إلى هاجر لأخنقها ولكنها بدأت تتلو آيـات من القـرآن وملامحهـا تـدل على التحـدي فضـعف جسدي فتمددت مرة أخرى على فراشي طالبًا من هــاجر أن تسكت، فقالت:

_ لن أتركك تفسد حياته أكثر من ذلك، مهما فعلت.

دخـل أبي الغرفـة مفزوعًـا لمـا يسـمعه من الخـارج فهجمت عليـه بشراسـة وهـو لا حـول لـه ولا قـوة بعيـنين يضخان رعبًا فدفعتني هاجر عنه بقوة

فبـدأت أضـرب بيـدي على صـدري بجنـون وأركـل بقــدمي في جــدار الغرفــة وأردت صــدم رأســي بــه فأمسكتني هـاجر من رأسـي بقـوة وأعـادتني إلى هـدوئي مرغمًا، حاولت أن أسيطر على حواسي لكنني لم أستطع. كنت أرى وأسمع كل ما يحدث ولكني عـاجز عن فعـل أي شيء. صمت لدقائق وهاجر مـازالت تتلـو الآيـات واضـعة يدها على رأسي.

_ أعيدوا لي مـا سـرقوه من المقـبرة، الصـندوق والخـاتم وسأتركه وشأنه.

_ وتخلصه من عهدك؟

_ نعم سأفعل ما تأمرينني به.

زادت هاجر من بخورها وارتفع صوتها أكثر بالآيات، فقلت:

_ توقفي عن هذا، أخبرتك أني سأفعل ما تريدين.

_عد إلى مقبرتك الآن حتى أعيد لك ما تريد.

شـعرت بهـزة عنيفـة تجتـاح جسـدي وصـداع شـديد يضرب رأسي، وخمدت حركتي وساد السكون أجـزائي ثم فقدت الوعي ولم أشعر بما حدث بعد ذلك..

الفصل التاسع والعشرون

نداء القبر..

لم أستعد وعي إلا في الصباح، أفتح عيني وأغلقها أكثر من مرة، وأحرك يدي وقدمي للتأكد من عودة سيطرتي على حواسي مرة أخرى، كان جسدي متعبًا جدًّا وأعاني من صداع شديد، فناديت (أمي أمي)، لم أتلق جوابًا فصدمتني ذاكرتي بأن أمي توفيت ولن تجيبني إلي الأبد، ما زلت لم أتعود على فراقها رغم مرور شهر على ذلك، قمت في بطء شديد وخرجت من غرفتي متوجهًا إلى المطبخ لأعد قهوتي، وقع نظري على غرفة الجلوس فوجدت أبي وهاجر وياسين جالسين في صمت.

_ عمر، حمد لله على سلامتك يا بُني.

_ سلمت يا أبي.

_ هل تحسنت حالتك؟

_ الحمد لله، فقط بعض الألم في رأسي.

نظرت إلى ياسين الذي ظل صامتًا ثم نهض وتقدم إليّ في خطوات مترددة، فنظرت له في عتاب شديد، ولكنه بادرني بعناق طويل اختلطت فيه دموعنا ولم نتعاتب بكلمة واحدة، فأنقذنا أبي بقوله:

_ فلتجلس يا عمر، اجلس يا ياسين.

_ سأذهب أنا لأعد القهوة.

_ لا ترهقي نفسك يا هاجر، سأقوم بإعدادها.

_ ألا تريد أن تجرب القهوة من صنع يدى يا عمر؟

_ بل أريد طبعا.

نظرت لها في خجل وتوجهت للجلوس بجانب أبي، وجلس ياسين بمواجهتنا. وأخذ أبي يطمئن على صحتي دون ملل وأنا أجيبه بابتسامة هادئة، حضرت هاجر حاملة فنجان قهوتي فقدمته ثم جلست بجانب ياسين مستفهمة مني:

_ عمر، هل شعرت بما حدث معك بالأمس؟
_ نعم ، كنت أشعر بما يحدث ولكني كنت فاقدًا السيطرة على نفسي.
_ بالطبع، هو حضر حضورًا كاملًا وسيطر عليك كليًّا.
كان ياسين يستمع لكل ما يقال وكانت هاجر قد قصت عليه كل ما حدث فعلم بصدق نيتي في المساعدة ولهذا جاء لينهي خصامنا ويساندني كما تعودت منه دائما فيما سيحدث بعد ذلك.
التفت هاجر مخاطبة لأبي:
_ لقد طلب المغربي عودة الخاتم والصندوق إلى المقبرة حتي نستطيع فك سحر والدة حنين ويعود كل شيء إلى طبيعته.
ظهرت الحيرة واضحة على وجه أبي وكأنه يخفي شيئًا.
نظرت في يد أبي فلم أجد الخاتم فسألته:
_ أين الخاتم يا أبي؟
أخذ أبي يقلب نظره بيننا ثم طرق ينظر إلى الأرض في شرود وحزن فتملكنا القلق والحيرة من أمره، توتر أبي وتصبب عرقًا ثم ابتلع ريقه وقال:
_ الخاتم مع والدتك يا عمر.
_ كيف يكون معها، لقد ماتت أمي.
قلتها بصوت مخنوق وكانت أول مرة أصارح نفسي بهذه الحقيقة المؤلمة.
تساقطت منه الدموع قائلا:
_ لقد تعاهدنا إذا ماتت قبلي أن أضع الخاتم في يدها ويدفن معها.
صعقت مما سمعت ولم يكن هاجر وياسين أقل مني دهشة، فقلت غاضبا:
_ فلتبحثي يا هاجر عن حل آخر لإنهاء هذا السحر.
_ أنت سحرت لها بدمائك ولن ينتهي السحر إلا بموتك أو بتوبة المغربي ومساعدته لنا.

_ إذن فلتقتلوني إذا كان هذا هو الحل الآخر.
_ هذا مستحيل.
صرخ بها ياسين.
نظرت لي هاجر بتركيز شديد.
نظرت إلى أبي وشردت قليلا أفكر ثم قلت:
_ سأذهب إلى أمي وأستعيد منها الخاتم.
_ كيف هذا يا بني؟
_ ألديك حلٌ آخر يا أبي؟
أخذ أبي يقلب كفيه ويحوقل بحرقة ثم قال مستسلمًا:
_ سأذهب إلي بدران حارس المقابر وأحاول أن أقنعه بالأمر، لله الأمر من قبل ومن بعد.

جلسنا بعدها نصف ساعة سألت عن حال حنين فأخبرني ياسين بأن الحزن كاد يقتلها على والدتها، ثم أخذ الجميع يشجعني على ما نويت فعله وأن ذلك سيكفر لي عن قتلي لسلامة وسحري لوالدة حنين، ثم انصرف ياسين وهاجر على وعد باللقاء بعد المغرب لنرى ماذا فعل أبي مع عم بدران التربي. لا أعلم ماذا سأفعل إن جاء أبي يخبرني بموافقة عم بدران على فتح القبر؟

حضر ياسين وهاجر قبل موعدهما وانتظرنا جميعًا عودة أبي، كان هناك شيء ما تغير في علاقتي مع ياسين، كنت سعيدًا جدًّا بعودته، لكن كان هناك شيء ناقص بيننا وهو ضريبة المشاكل الكبرى بين الأحباء لا يعود كل شيء كما كان مهما اجتهدنا في ذلك، ستبقى هناك ندبة لم يستطع الزمن محوها. استمتعت كثيرًا بالحديث مع هاجر، كنت أحاول بشتى الطرق أن أصرف تفكيري إلى ما هو قادم، لكن مجرد ثوانٍ معدودة وجدناه قادمًا بوقاره المعتاد يدخل البيت ويبادرنا قائلاً: لقد ذهبت إليه ووفقني الله إلى إقناعه بأن عمر يمر بأزمة نفسية حادة ولا يستوعب وفاة والدته وعلاجه أن يراها في قبرها ليعود إليه رشده، سامحني يا عمر اتهمتك بالجنون، أردت أن

أقول لأبي إنه علي حق وإن هذا ما أشعر بـه حقـا ولكـني فضلت الصمت، استطرد أبي في حديثه:
_ سأذهب أنا وعمر قبل صلاة الفجـر بسـاعة واحـدة إلى المقابر وسيكون بدران في انتظارنا.
استأذنت حينها وعللت بأني بحاجة للراحة وتـركت والـدى مع ياسين وهاجر.
دخلت غرفتي غاضبًا، سأنبش قبر أمي من أجل إنقاذ والدة حنين، كيف وافقت على هذا الأمر؟ فلتـذهب والـدة حنين للجحيم ويتركوا أمي تنعم في قبرها بسـلام، فكـرت أن أخرج وأخبر هاجر وياسين بعدم موافقتي وليحـدث مـا يحـدث، أخـذت الأفكـار تـذهب بي من هنـا إلى هنـاك، لا أعرف وجهتي ولا أعرف مـتى ينتهي طـريقي، ولكـني في النهاية تركت قراري للحظة الأخيرة كما تعودت دائما.
بعد منتصف الليـل طـرق أبي بـاب غرفـتي فأخبرتـه بأني مستيقظ، فوجدتني أجهـز نفسـي وأخـرج لأخـبر أبي أني مستعد للذهاب الآن، أوصاني أبي بعـدم الحـديث مـع عم بـدران حـتى لـو وجـه لي أي سـؤال، بعـد ثلث سـاعة مشيًا على الأقدام كنت أنا وأبي أمام باب المقـابر، طـرق أبي على شباك صغير مناديًا:
_ بدران.
_ من ينادى؟
_ أنا رضوان.
لحظـات معـدودة ووجـدت مـزلاج البـاب الرئيسـي للمقابر يفتح فتحة صغيرة فتوجه أبي إليه فتبعته ثم دخلنـا إلى المقابر، وجدت عم بدران في جلبابه الكحلي وعمامة بيضاء يسبقنا بجسده النحيف وقامتـه القصـيرة بخطـوات متأنية ثابتـة يتنقـل بسـهولة في ظلام المكـان كـأن قدمـه معها خارطة الطريق وأنا وأبي نتبعه خطوة بخطوة، أخرج عم بدران كشافًا صـغيرًا يعمـل بالبطاريـة وسـلط ضـوءه على قـبر تعلـوه لافتـة رخاميـة مـدون عليهـا اسـم أمي

فانقبض قلبي وتسارعت دقاته وأصابني دوار شديد كدت أسقط من أثره على الأرض، ولكن أبي أدركني بذراعه وساعدني على الوقوف، تقدمت ببطء أدقق النظر، كانت المرة الأولى التي أتعرف فيها علي تاريخ ميلاد أمي وللأسف هي نفس اللحظة التي عرفت فيها تاريخ وفاتها، أخرج عم بدران بعض المفاتيح واختار منهم واحدًا وطلب مني التقهقر للخلف قليلاً حتى يتمكن من فتح القفل الذي تحت قدمي، قام بفتحه ثم أزاح التراب عن غطاء أسمنتي وبدأ بعصا حديدية في زحزحته من جوانبه ثم رفعه إلى أعلى فساعده أبي، نظر أبي إليّ في شفقة متناهية وطلب مني النزول إلى القبر، نظرت إلى الحفرة فوجدتها بعمق متر ونصف تقريبا مظلمة ظلامًا لا تراه إلا داخل قبر، وجه عم بدران الكشاف إلى داخل القبر فبدأت أتدلى داخله برفق، بمجرد أن لمست قدمي أرضيته حتى سرت في جسدي قشعريرة رهيبة فتمالكت نفسي بصعوبة، جلست القرفصاء ونظرت إلى داخل القبر فلم أر شيئًا، أعطاني أبي الكشاف وطلب مني سرعة إنجاز الأمر، أما عم بدران فابتعد بخطوات قليلة ينتظرني أن أنتهي، كان في مخيلتي أنني سأجد أمي كما تعودت عليها في حياتها ولكن أين أمي هي ليست هنا، ناديت أبي أخبره بذلك فلم يجاوبني، دققت النظر فوجدت قماشًا أبيض، هذا هو الكفن الذي سمعت عنه ولكني لم أره إلا الآن فأدركت أن أمي بداخله، حبَوت علي ركبتيّ نحو رأسها وقمت بكشف غطاء الكفن عنه فوجدت وجه أمي أو ما تبقى منه، تمزق قلبي من الألم وبللت كفنها بدموعي ولكنها لم تمد يدها لتمس رأسي لأكف عن البكاء كما تعودت منها دائما، وجدت الخاتم بارزًا تحت طيات الكفن، أخرجت الشفرة الحادة من جيبي وبأصابع مرتعشة وقلب يثور في صدري جرحت كفنها واستخلصت الخاتم من يدها فارتعدت عندما

أدركت أن هذا ما تبقى جسد أمي، فجلست على ركبتي أبكي متشنجًا وأبي ينهرني ويطالبني بالخروج، وأنا أناديها (سامحيني يا أمي، أفتقدك) كنت أتخبط في جنبات القبر الضيق، أعدت غطاء الكفن على وجهها، ثم تراجعت وانكببت على عظام قدمها أقبلها واختلطت دموعي بتراب قبرها، حاولت بصعوبة تمالك أعصابي لأستطيع الخروج، ساعدني أبي وعم بدران وقاما بجذبي إلى الخارج، جلست على الأرض أبكي وألعن نفسي، وأبي وعم بدران يطالباننني بالصمت حتي ينتهيا من إغلاق القبر مرة أخرى، بصعوبة غادرنا المقابر وعدنا إلى بيتنا مع أذان الفجر..

دخلت غرفتي ألملم ما بقي مني، شعرت حينها أن أمي لم تتوف إلا في هذه اللحظة، دخل أبي وحاول تهدئتي وتهوين الأمر، ولكنه بكى عندما وجد الخاتم في يدى فأخذه وقبله، كانت ليلة من أصعب الليالي التي مرت عليّ في حياتي، ضيق القبر وظلمته كمنا في صدري منذ هذه الليلة ولم يغادراني، أنا ملعون بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أنا شيطان رجيم في صورة إنسان، حتى الشيطان سيجد من البشر من يتعاطف معه لكني لا أستحق أن يتعاطف معي أحد، وبكل ما بي من قسوة وجحود مازال لساني وقلبي يرددان: سامحيني يا أمي..

بمكالمة تليفونية مع أبي اطمأن ياسين وهاجر على رجوع الخاتم، وبعد نصف ساعة كانا جالسين مع أبي في غرفة الجلوس، خرجت إليهم يملؤني الغضب والحزن والاحتقار للعالم كله، وأنا لا أعلم لماذا خرجت، كان الأولى بي أن أظل في غرفتي.

_ كيف حالك يا عمر؟

خاطبتني هاجر فجاوبتها بنظرة حادة.

_ هل تشعر بالتعب؟

سألني ياسين فلم أدر له وجهي.

نظرت هاجر إلىّ بمودتها المعهودة قائلة:
_ نحن نعلم أن ما فعلته بالأمس كان وقعهُ شـديدًا عليـك، لكن مـا باليـد حيلـة لم نمتلـك حلًا آخـر يغنينـا عن رجـوع الخاتم.
تهالكت قواي فجأة فحملني ياسين ووضعني على كرسي، مشفقاً على تدهور صحتي.
صاح أبي:
_ متى ستذهبون إلى النفق؟
_ يجب أن نعجل بالأمر، حالة والدة حنين تسوء جدا.
قال أبي بملامح حادة:
- فليكن اليوم لننتهي من كل هذا يا هاجر.
_ لن يهبط النفق سوى أنا وعمـر يـا عم رضـوان هـذا من شروط المغربي.
حاول ياسين الاعتراض لكن هاجر حسمت الأمر.
نهض أبي وأحضـر ورقـة وقلمًـا وأخـذ يرسـم فيهـا خطوطًـا وعلامـات، ثم اقـترب مـني وطـالب الجميـع بالاقتراب قائلا هذا هو النفق، وهذه العلامات التي وضـعها الجدود التزموا بها حتى لا تضـلا الطريـق، هنـاك سـراديب كثيرة وليس طريقًا واحدًا، إياكما أن تضـلا، وسـأذهب إلى حارس الأرض المهجورة وألهيه حتى لا ينتبه إلى دخولكمـا بيت سلامة..
انتهي اللقاء وحـددنا مـاذا سـنفعل، لم أنطـق بكلمـة واحدة، كنت مستمعًا فقط وأحيانا كثيرة كنت شاردًا، كنت موافقًا على أي شيء حتى لـو أخبرونـني أنهم سـيقومون بـذبحي على بـاب الكـنز كنت سـأوافق ولا أبـدى أي اعـتراض، انصـرف الجميـع ودخلت غرفـتي أتـوارى من نفسي في نفسي منتظرًا الليل بفـارغ الصـبر لينتهي هـذا الكـابوس الـذي دخـل حيـاتي وخربهـا ولم يسـتطع حـتى الموت إنقاذي منه.

الفصل الثلاثون

الـمومياء..

قضيت وقتي محاولًا النوم، فشاهدت في منامي أحلامًا كثيرة، زارتني أمي وسلامة والغجرية والمغربي، لم أستطع فهم أي إشارة من أحلامي سوى زيادة قلقي، كنت أنتظر هاجر بتوتر شديد، هل سأقابل المغربي بهيئته الحقيقية؟ هل سيتركني أعود أنا وهاجر مرة أخرى؟ ماذا لو ضللت الطريق ولم أستطع الوصول إلى الكنز والمقبرة؟ هل سيفكر في الاحتفاظ بي للأبد في عالمه؟ غابة من الأسئلة قضيت فيها وقتي متجولا لا أجد جوابًا شافيًا يدلني على الطريق، حضرت هاجر وياسين وخرجت إليهما أنا وأبي، وضعت الخاتم في بنصري الأيسر كما طلب مني أبي، وضعت كل ما أحضرته هاجر من أشياء قالت إننا سنحتاجها في حقيبتي مع ثلاثة كشافات تساعدنا في الرؤية والخريطة التي رسمها أبي للنفق، ودعني أبي وأوصاني كثيرًا بأن أكون حريصًا على نفسي وأعود له سالمًا ثم سبقنا في النزول إلى البيت متوجهًا إلى حارس الأرض المهجورة ليصرف انتباهه عنا عند دخولنا بيت سلامة، ودعنا ياسين الذي قرر ألا يعود إلى منزله وسينتظرنا في منزلي حتى نعود ويطمئن علينا، نزلت أنا وهاجر في سكون الليل، سرنا متوازيين متقاربين، لم نجد أحدًا في طريقنا حتى وصلنا إلى بيت سلامة، تأكدت من انشغال الحارس مع أبي فهما جالسان يتسامران تحت الشجرة العتيقة، دخلنا بيت سلامة وأغلقت الباب خلفنا فنادتني هاجر _ فين الصندوق يا عمر؟

تقدمت إلى الصندوق في الظلام ورفعت عنه عباءة سلامة، فاقتربت وحملته إلى الغرفة الكبيرة، بمجرد دخولنا توجه نظري إلى السرير الذي دفنت سلامة تحته.

بدأت ذكرى القتل والدفن تسيطر على تفكيري فتدخلت هاجر:

_ أخبرنا العم رضوان أن باب النفق على بعد خطوتين من النافذة. _ نعم.

تقدمت إلى الشباك وخطوت خطوتين فرفعت هاجر فرش الأرض المتهالك وأزحت أنا التراب ليظهر الغطاء الخشبي واضحًا تحت أضواء الكشاف، قمنا برفع الغطاء معًا فظهرت بئر عميقة، ظلام في ظلام يملؤه، وجهنا الكشاف إلى داخلها فوجدنا سلمًا خشبيًّا مستندًا على جدار البئر وأوله على أرضية تفصلنا عنها ثلاثة أمتار تقريبًا، فسألتني هاجر:

_ كيف سنهبط بالصندوق إلى الأسفل يا عمر؟

فأخرجت حبلاً من حقيبتي وشرحت لهاجر كيف سنلف عليه الحبل وندلي به إلى أرضية النفق، تقدمت هاجر لتنزل أولا وتنتظر حتى أدلي لها الصندوق، كنت أخشى عليها مما نحن فيه، ولكن شجاعتها كانت أقوى من خوفي، وصلت هاجر إلى آخر السلم فبدأت أدلي لها الصندوق ببطء، ثم نزلت لألحق بها ونبدأ رحلتنا إلى المقبرة والكنز، وقفت أنا وهاجر نترقب ما ينتظرنا، ثلاث فتحات أمامنا، أخرجت الخريطة التي رسمها أبي وبدأنا نبحث عن العلامة التي رسمها، وكانت على شكل دائرة، وجدنا العلامة على جدار الفتحة الثانية، نزلنا خمس درجات منحوتة في أرضية النفق التي وجدناها مغطاة بالمياه التي وصلت إلى تحت ركبنا بقليل. كان النفق ضيقًا لا يساع إلا واحدًا وارتفاعه منخفضًا فسرنا منحنيي الظهر، فتقدمت هاجر وأنا أتبعها، زيادة على الرائحة النتنة التي تملأ المكان كانت هناك لفحات ساخنة تأتي من الخلف وهمسات تتردد في أذني ففهمت لماذا طلبت مني هاجر ألا أنظر للخلف مهما حدث، كانت هاجر تتابع العلامات من الخريطة. شعرت أننا درنا مرتين وعدنا إلى

نفس المكان ولكن في المرة الثالثة وجدنا باب المقبرة أمامنا، تصلبت في مكاني لا أستطيع الحركة أو التقدم خطوة واحدة، جذبتني هاجر من يدي بقوة حتى دخلنا المقبرة، وما إن رفعت نظري لأنظر ما فيها حتى أخذتني الدهشة والإعجاب، أخذت أتفقد أنا وهاجر ما نرى، كان يتوسط الغرفة تابوت مرسومة عليه النجمة في كل جوانبه، على الأرض بجواره يوجد غطاء التابوت تزينه النجمة أيضا ولكن بحجم أكبر وزخرفة رائعة، كانت جدران الغرفة مزينة بالرسومات والأشكال والصور المنحوتة بدقة كبيرة، حاولت أن أفهم شيئًا من النقوش كانت كأنها قصة مدونة لجرائم قتل والجميع غارق في بحر من الدماء وهناك تماثيل ذهبية بأحجام مختلفة، مجموعات من الأحجار الكريمة المتعددة الألوان، كثير من الأواني والكؤوس الذهبية والفضية، مجموعة كبيرة من البرديات واللفافات الورقية والجلدية، حوالي أربعة صناديق تشبه الصندوق الذي وضعته على أرضية المقبرة عند دخولي، كان هناك كثير من الأدوات التي تدل على أن صاحب المقبرة كان طبيبًا أو كاهنًا أو ساحرًا, فنظرت لي هاجر بابتسامة قائلة:

_ هل أنت متأكد من أنك لا تريد الكنز؟

ابتسمت في ألم وهززت رأسي مؤكدا على موقفي.

_ هيا أفتح الصندوق لنوقف سحر والدة حنين، وسينتهي كل شيء عند إعادة الخاتم.

أخرجت هاجر زجاجة ماء من الحقيبة وطلبت مني أن أسكبها على النجمة وأنظفها جيدًا من الدماء.

فعلت ما طلبته مني هاجر فعادت النجمة إلى حالها وظهرت عليها الطلاسم واضحة .

وكانت هاجر تردد بصوت مسموع (**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**).

فناديتها:

_ ماذا سنفعل الأن؟
تعيد الخاتم إلى المومياء، ونغلق التابوت.
تقـدمت أنـا وهـاجر إلى التـابوت فوجـدت المومیـاء بداخله، فزعت هاجر حينمـا رأتهـا ولكن فـزعي كـان أقـل منها بسبب ما شاهدته في قـبر أمي في الليلـة الماضـية، حاولت هاجر طمأنة نفسها وتهوين الأمر عليّ قائلة:
_ هيا يا عمر، لم يتبق إلا القليل.
خلعت الخاتم من إصبعي ثم مددت يدى ببطء لأضعه في إصـبع المومیـاء المستسـلمة، كـانت هـاجر تراقبـني وتلتصق بي تمدني بالإضاءة.
خارت قوتي وسـقطت على الأرض متشـنجًا، رأيت وجهًـا قبيحًا يلتصق بوجهي ويصرخ بصيحات مدويـة، شـعرت بـه ينفصـل عن جسـدي يغـادرني بكـل قوتـه، ثم اتجـه إلى التابوت واختفى بداخله. انتهيت من عملي وانتهيت نفسيًا، فربتت هاجر على كتفي قائلة:
_ حمدًا لله يا عمر، هيا نغلق التابوت ونرحل من هنا.
حملت غطـاء التـابوت من جهـة وهـاجر تحملـه من الجهـة الأخـرى وبصـعوبة شـديدة اسـتطعنا إعادتـه فـوق التابوت، أخرجت هاجر البخـور وأشـعلته ثم وضـعت يـدها على غطاء التابوت مغلقة عينها تتمتم بطلاسـمها الخاصـة وتتشـاءب رغمًـا عنهـا وخشـيت أن تتشـنج أو تفقـد وعيهـا، دوت صرخة مدوية صاحبها صوت ارتطام مخيـف، انتـابني الهلـع والتصـقت بهـاجر الـتي فتحت عينيهـا نـاظرة إليّ مبتســمة تخــبرني أن كــل شــيء انتهى الآن، وهممنــا بالانصراف، قمنا بإعادة الأحجار الـتي كـان يختفي وراءهـا باب المقبرة، عدنا أدراجنا في خشية أن يهاجمنا المغـربي أو نتعرض لأى أذى في طريق عودتنا ولكن هاجر طمأنتني بأن خادمها يقوم بحمايتنا، لم أصدق أننا في أمـان إلا بعـد إغلاق الغطاء الخشبي في غرفة نوم سلامة والخـروج إلى الشارع، عدنا إلى مـنزلي، لم أكن سـعيدًا ولا حزينًـا. كـان

الأمـر سـيان عنـدي، ولكن سـعادة أبي وياسـين بعودتنـا جعلتـني أبتسـم وأشـاركهما سـعادتهما، لقـد قمت بمـا أستطيع يا ياسين لإنقاذ والدة حنين، هلا سامحتني الآن؟

_ أسـامحك يـا صـديقي، وأتمـنى أن تسـامحني، أنت تحملت الكثير من أجل إسعاد حنين.

مـا إن نطـق ياسـين اسـم حـنين حـتى هـرول إلى الهاتف ليهاتفها في المشفى ويطمئنها أن والدتها ستشفى وتكون بخير في القريب العاجل.

انتظـر ياسـين قليلاً ثم تغـيرت ملامح وجهـه من فـرح وسعادة إلى دهشة وحزن، قائلاً:

_ متى حدث هذا؟

أغلق ياسين المكالمة ثم انهار على الكرسي واضعًا وجهه بين كفيه.

_ ماذا حدث يا ياسين؟

_ ماتت أم حنين.

ثم انفجر باكيًا.

وألجمت المفاجأة لسان هاجر وبدأ أبي يردد في ذهول:

_ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

بصوت مخنوق ونفس يلهث مدافعاً عن نفسي في ضعف وانكسـار شـديد: _ ولكنكم تعلمـون أني لم أقتلهـا، لقـد فعلت ما بوسعي لإنقاذها.

كنا ننظر إلى بعضـنا البعض في ذهـول وصـمت مطبـق لا يقاطعه إلا زفرات الألم والحسرة.

الفصل الواحد والثلاثون

النهاية..

كنت أتوقع حينما دبرت السحر لوالدة حنين أن يوم وفاتها سأكون سعيدًا بانتقامي منها لتسببها في موت أمي، لكن تدبير القدر جعلني أحزن على وفاتها بسبب تأخري في إنقاذها. كانت الصدمة قوية على الجميع وبالأخص حنين، منعني أبي وياسين من الذهاب إليها لأنها تعتقد أو شبه متأكدة من أني قتلت والدتها، أكد ظني حديثي مع ياسين بعد أسبوعين من الوفاة قائلا:

_ حنين أصبحت غريبة الأطوار.

_ من المؤكد أنها حزينة على وفاة والدتها .

_ أنا لا أقصد الحزن، حنين تستفسر عن كل تفاصيل حياتك وما هي أبعاد علاقتك بوالدتها وكيف استطعت إنقاذها من مرضها قبل ذلك.

حاولت أن أصرف تفكيرها عن أي صلة لك بالأمر ولكنها مقتنعة أنك السبب في وفاة أمها.

_ يجب أن أراها في أقرب وقت.

_ ماذا تقول؟ لا أنا لا أوافق على ذلك.

_ لابد أن أراها، يجب أن تخبرها بذلك وتسعى لتحقيقه.

_ لماذا تريد رؤيتها؟

_ يجب أن أواجهها..

_ ماذا ستقول لها؟

صمت ولم أجب ياسين.

_ أخبرني ماذا ستقول لها؟

تنهدت بضجر قائلا:

_ سأخبرها بكل شيء أسمعت، كل شيء يا ياسين.

_ ستخبرها بأنك قتلت أباها وأمها؟ أجننت؟!

_ سأخبرها نعم، ولها قرارها بعد ذلك..

انصرف ياسين وأخذت أفكر فيما قلت له، هل أستطيع حقًا مصارحة حنين بكل هذا؟ كيف سيكون رد فعلها بعد أن تعرف؟هل تسرعت في قراري؟

لا، لم أتسرع سأواجه حنين بكل شيء دفعة واحدة، كل ما سأخبرها به هباء لا يقارن بما أخفيه عنها وأنها أختي الصغيرة.

كانت هاجر في هذه الأيام تزورنا باستمرار وكانت خير ابنة لأبي الذي كفلته برعايتها، انتظرت رد حنين على طلبي بفارغ الصبر، أعلم أنها تكرهني الآن وسيزداد كرهها لي بعد مصارحتي لها ببعض من الحقائق..

أخبرني ياسين بموافقة حنين على لقائي وبأنها أيضا تود رؤيتي والتحدث معي، وأخبرني أنها ستزورني في أقرب وقت. كان التوجس من هذا اللقاء يتملك الجميع لما رأوه من حنين من حنق وغضب عليّ، لكني صممت على المواجهة مهما كلفني الأمر، أخبرني ياسين بعد مدة بزيارة حنين لي في بيتي، قبل حضورها بنصف ساعة قرر أبي الانصراف وعدم رغبته في البقاء بيننا، أما هاجر فصممت على الحضور لقلقها الشديد من حنين، حضرت حنين وياسين ما بين العصر والمغرب، فتحت هاجر لهما الباب فرمقتها حنين بنظرة نفور شديدة، هي تعرف هاجر وسبق أن قابلتها عندنا زارت والدتها وهي مريضة، نهضت من على الكرسي أراقب تعبيرات وجه حنين الشاحب ونظرات عينيها الزائغة في كل أركان البيت تبحث عني فارتعدت متوترة حينما اصطدمت عينها بعيني.

_ كيف حالك يا حنين؟

لم ترد وعيناها تصوب لي سهامًا نارية.

_ اجلسي يا حنين أرجوكِ.

أجلسها ياسين بصعوبة.

_ البقاء لله في والدتك يا حنين.

لم تجبني أيضا.

_ حنين أنتِ تعلمين مكانتكِ عند عمر.
خاطبتها هاجر.
_ياسين أريد أن أذهب.
قالتها حنين غاضبة، ثم أردفت قائلة:
_ قبل أن أذهب، لماذا قتلت أمي؟
لم أتوقع سؤالها بهذه الحدة.
_ لم أقتلها.
نظرت في عينيها متوسلاً أن تصدق كذبتي.
_ من أين جئت؟ من يـوم ظهـورك في حيـاتي وأنـا في عذاب، أحلام مزعجة ومرض غريب وسحر سفلي وأشـياء لا أجد لهـا تفسـيرًا انتهت بمـوت أمي، وأنت الطـرف في كل هذا، أنا ماذا جنيت لك لتفعل بي هكذا؟
كانت دموعهـا تتسـاقط بغـزارة وتتسـاقط معهـا اللعنـات على وجهي.
_ دعيني أشرح لكِ ما حدث.
واقـتربت منهـا جـدا في مراقبـة من هـاجر وياسـين المجبرين على الصمت أثناء محاكمتي من حنين.
_ لا أريد أن أفهم شيئًا، أنت شيطان ولست بني أدم.
_ حنين أرجوكِ دعيني أوضح لكِ الأمور.
كدت أنهار وأخبرها أنها أختي.
_ لم يعد بيني وبينك أي حديث يا عمر.
أدرت ظهري لها متأسفًا خجلًا منها يمزقني الحزن على ما نحن فيه.
_ احترس يا عمر.
صرخت هاجر.
أدرت وجهي إليها فصعقت عندما وجـدتها تمسـك بسـكين مستقر في قلب هاجر.
أسندت هاجر على ذراعي وأرخيت جسدها واضـعًا رأسـها على صدري.
_ ماذا فعلتِ يا حنين؟

نهرها ياسين مندهشًا.
_ كنت أريد قتله انتقاما لأمي.
بصوت مكسـور عللت فعلتهـا واضـعة يـدها على وجههـا وهي تنتفض.
_ أنتِ لا تعلمين شيئًا، لماذا فعلتِ هذا يا حنين.
خاطبتها وأنا أبكي.
_ هاجر جاوبيني أرجوكِ.
_ عمر..
قالتها مبتسمة.
_ فداكِ عمر يا هاجر.
_ أتعلم أني ســعيدة جــدا لأني ســأموت ورأســي على صدرك.
خاطبتني بصوت ضعيف وهي تقبل يدى الملطخة بدمائها.
_ لا لن تموتي، ستكونين بخير ونتزوج ونكمل معًـا حياتنـا، نعم لن تموتي.
ثم ناديتهـا فلم تجب، احتضـنتها وأخـذت أصـرخ ولكنهـا لم تستجب لصراخي،
_ هاجر ماتت يا عمر.
قالها ياسين باكيًا.
انهـارت حـنين على المقعـد مستسـلمة، كـانت أصـوات الناس تقترب من الباب يسـبقهم أبي بعـد سـماع صـرخة هاجر.
أمسكت السـكين بيـدي في نفس اللحظـة الـتي فتح أبي فيها الباب، فـدخل النـاس وتجمعـوا حولنـا ليشـاهدوا هاجر مقتولة، فيسأل الجميع من قتلها، فنظرت إلى حنين التي تجمدت في مكانها، ثم صرخت بأعلى صوتي:
_ أنا القاتل.
وأخذت أكررها في جنون.
لم يتكلم ياسين من هـول المفاجـأة، لم يتمالـك أبي نفسـه وسـقط مغشـيًا عليـه، دقـائق معـدودة وحضـرت

الشــرطة، كــان وداعي لهــاجر وهم ينتزعونهــا من بين أحضـاني أشـبه بمغـادرة الـروح للجسـد، تم القبض عليّ بتهمــة قتــل هــاجر، لم أنطــق بكلمــة واحــدة عنــدما استجوبوني إلا باعترافي بقتلها، مر الوقت عليّ لم أشــعر بــه، فقــدت الإحســاس بــالزمن وبالمكــان وامتنعت عن الطعام، علمت حينها كيف يعيش الإنسان بـدون إرادة. تم تحويلي إلى المشفى وإنقـاذي من المـوت لسـوء صـحتي بالمحاليل والأدوية، لم تكن هناك فرصة لنجاتي وتم تحديد موعــد لنطــق الحكم في قضــيتي، وفي المحكمــة أثنــاء الجلسـة حـدثني ياسـين بأنـه لا يعـرف مـاذا يفعـل؟ هـل يعــترف على حــنين وينقــذني ونتبــادل أنــا وهي الأدوار؟ أخبرتـه أني لن أتراجـع في اعترافـاتي أمـام النيابـة مهمـا حدث، أما حنين التي لم تكف عن البكاء فحدثتني بصعوبة قائلة:

_ سامحني يا عمر، أنا لم أكن في وعيي.

_ اسألي الله أن يسامحنا جميعا يا حنين.

أما أبي الذي لم يعلم أن حنين هي من قتلت هاجر، تملكه الحزن والحسرة ونظر إليّ معاتبًا ودموعه تغرق لحيته..

تعددت محـاولات المحـامي الـذي يعمـل معـه كمـال صديقي بعد تخرجه في الجامعة، في إقناع القاضـي بـأني مــريض نفســي ويجب أن أعامــل كمجنــون فاقــد لعقلــه بســبب مس من الجن، وقتلي لهــاجر مــا هــو إلا حالــة أصابتني فقتلتها عندما كانت تعـالجني، لكن كـل محاولاتـه بـاءت بالفشـل وبـالأخص بعـد اعـترافي بقتلهـا والتقريـر الطبي الذي أثبت سلامة قواي العقلية وكل ما أعاني منـه حالة اكتئاب شديدة ولكنهـا لا تـؤثر على قـراراتي. انتظـر الجميع في صمت صدور الحكم. أما أنـا فكـان مـا يشـغل تفكـيري ألا يعتـبروني مجنونًـا لأفلت من فعلـتي، الإعـدام عندي أهون من ذلك، فمـا قيمـة الحيـاة للإنسـان إذا فقـد

عقله، فنطق القاضي بعد ذكر اسـمي وتهمـتي واعـترافي بجريمتي وهو الإعدام شنقًا.

صرخت حنين: (أنا القاتلة وليس عمر) ولكن لم ينتبه لها أحد، اقـتربت من قفص الاتهـام وطلبت غفـراني، وملأ صوت حنين وأبي وياسين قاعـة المحكمـة، صـحت بـأعلى صوتي(ابقي قريبًا من أبي وحنين يا ياسين)..

قضيت مدة أنتظر تنفيذ حكم الإعدام الذي تحـدد لـه يوم ٢٠ أبريل، سـأحاول أن أقنـع نفسـي أنهـا صـدفة، مـا أسوأ أن تعيش بصحة سيئة وذاكرة قوية، لكن أحمـد اللـه أني لن أعيش على هـذه الحالـة فـترة طويلـة، رغم ذلـك فكـان هنـاك شـيء في نفسـي سـعيد، ربمـا ابتعـادي عن الجميـع خلـف بـاب زنزانـتي المغلـق أعـاد إليّ بعضًـا من السلام النفسي الذي افتقدتـه طـويلًا لمـدة عـام، وهـا أنـا الآن ببـدلتي الحمـراء أدون مـذكراتي، وهـذا كـان طلـبي الأخير ومنتظـر تنفيـذ حكم الإعـدام. لا أعلم إن كـان هـذا عقابًا مُرضيًا على ما أذنبت في حق نفسي وحق الآخرين، لا أعلم لماذا أنـا هكـذا أفعـل الأشـياء بنيـة الخـير فينقلب الأمر إلى شر لي وللآخـرين؟! جئت أسـاعد حـنين فقتلت سلامة، أحببت أمي حد الفناء فأصبحت السبب في عذابها في حياتهـا وموتهـا، وهـاجر الـتي سـاعدتني وقـدمت كـل شيء قُتلت بسببي، وحنين من يوم دخولي حياتهـا حولتهـا إلى جحيم وانتهي أمرها بأن تصبح قاتلة تعيش في عـذاب الضمير طوال عمرها، أما أنـا ففـزت بالنصـيب الأكـبر من الأذى وسـتنتهي حيـاتي قريبًـا على حبـل المشـنقة. كنت أتمـني أن أجـد تفسـيرًا لكـل مـا حـدث لي، ولكن عـزائي الوحيد أني حافظت على سر أمي مهما كلفني الأمر.

وفي النهاية سأظل أسـأل: مـا هي تهمـتي؟ كـل مـا أتذكره أني خرجت أمارس هوايتي بالمشـي تحت المطـر في ليلةٍ شتوية غاب عنها القمر.

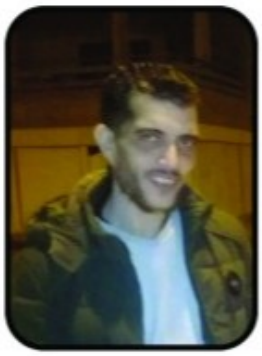

وهـــا أنـــا الأن ينتهـــي مصـــيري بالأعـــدام شنقـــًا، لأنهي حياتي التي لا أعلم كيف تعقدت بهذه البساطة، من إنسان عاديا لدرجة الملل ليؤل بي الحال في النهاية إلي حبل المشنقة، فأنا أتلقي عقابي بعد أعترافي كذبا أني قتلت حبيبتي لأحمي أختي من العقاب بعد أن أرادت الأنتقام مني لأني كنت سببا في قتل والدتها التي، تسببت في موت أمي ولكني راضيا بهذه النهاية فربما تكون عادلة وعقابا مستحقا بعد قتلي لأبي ودفنه دون أن يعلم أحد بعد أن علمت أنه أغتصب أمي أنتقاما من الشخص الذي أعتقدت دائما أنه أبي....